لَمَـــار

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

書誌事項

- **الكتاب: لمار**
- **المؤلف: خلود شواف**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 14971 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-96-7**

- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- الغلاف: ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: 27 شارع جمال الدين دويدار من عباس العقاد – مدينة نصر - القاهرة
  38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

لَمَـــار

رواية

خلود شواف

مانبلو
للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى الحبر الذي منحني فرصة بأن أغوص في بحار الكلمات والحروف...
إلى الحروف التي منحتني فرصة بأن أصنع منها قوارب من الكلمات..
إلى الكلمات التي سبحت في شعور قلبي ووصلت إلى شاطئ أصابعي..
إلى أصابعي التي تنفست الكتابة بكل ما تملك من إحساس.....

خلود شواف

لاأعلم من أين أبدأ إلا أن هناك في قلبي شهية بالغة لأن أبدأ..
هناك في منتصف شعوري إحساسٌ عالقٌ لايستطيع أن يُكمل المسير وفيه شيء مبهم لايعلم مصدره.
إحساسي الذي عبر روحي بقوة واستوقفني عن كل شيء.
حاولتُ جاهدةً أن أبحث له عن نقطة توصله إلى مبتغاه وتُحرر روحه من هذا التمرد..
غُصت في شفتيه كي أجد الكلام ملتصقاً بهما وتربعت بين غيومه كي أفُك المطر المحبوس في قُطنه...
بل إنني قررتُ أن أخوض بحره..
فلا بد لي أن أجد منفذاً له مما هو فيه..
وبينما أنا أجلس أمام طاولتي التي تعج بالأوراق والأقلام هبط ذاك الإحساس على الورق وانجرف بين الأقلام كأنه لأول مرة يراها.
سلك كل تفاصيلها، جذبني كالمغناطيس لأبقى مكاني وكأنه يُريد أن يهبني شهيته ويُعلق القلم بين أصابعي لكي أُشبع رغبته المتطفلة
احتضنت القلم وأنا حائرة أمام هذا الحشد الكبير..
إحساس ورغبة وأقلام وأوراق وذاكرة تهطل ألماً واندفاعات غزيرة للحديث في صدري، أحتار كيف أبدأها.
لاجدوى في الهروب منها فأنا الآن رهن اعتقالها

لذلك قررت أن أبدأ أن أضع بداية للحديث بيني وبين الورق
فانطلقت من رصيف ذلك اليوم الذي بقي منحوتاً في عقلي
مازالَ أثره عالق في روحي ونافذته مفتوحه على كل حياتي
كنت فيه بأشد الحاجة ليد تشد عضدي، كنت بحاجة لدفء يُذيب قطع الثلج العالقة في قلبي، عطشى لقطرة ما ء تسقي التصحر به
فمنذ زمن لم يلمس جراحي أحد، لم يَرفق أقرب الناس إليَّ بحزن قلبي
تمنيت أن يُشعِل لي أحدهم قنديل الحياة، لكن عتمة القسوة أكلت قلوب من حولي
عشتُ وحدي بينهم، ما رسوا أبشع أنواع التعذيب لإنهاك روحي حتى كلماتي كانت تُحرق بأعواد التجاهل
إنني أضمرت الكثير من الحسرة في رحابهم المُشابه للصبار
إلى أن جاء ذاك اليوم الذي خرجت فيه مع جدتي إلى الحديقة الدمشقية التي تقع على مقربة من منزلنا الواقع في دمشق، فقد مللت يومها من جدران المنزل، ومن الانخراط في الجدالات العقيمة مع أبي الذي يمنعني من مغادرة المنزل وحدي بدوافع قد كرهتُ سماعها، تمنيت يوماً أن أسحبها من عقله المريض.

رغم أن عمري لم يتجاوز الخامسة عشر، إلا أني تجاوزت الطفولة والشباب بينهم، شعرت بمعنى الفتائل التي توقد فوق جسدي النحيل المُذاب من كثرة التفكير والظلم.

أن تشعر بالظلم من أقرب المقربين إليك هذا شعورٌ قاس.

أن تنام في الليل وأنت تبحث عن حضن يُضمد جراحك هذا يعني أنك فقدت روح الحياة.

أن ترتجف من برد الجالسين أمامك هذا يعني أنك فقدت الحياة..

أنت فقط في هذه اللحظات جسد تم التخلص من الحياة فيه.

هكذا كنت بينهم مفعمة بالألم والإحباط والوله والخوف من الشيء واللا شيء..

كنتُ أمضي في الطريق مع جدتي التي خَرجت مرغمةً معي لكي تتفادى المشاكل، وأشعر أن طريقًا آخر ينتظر قدميّ لتدق فوقه كي يسحبني إليه.

في ذاك اليوم الربيعي الذي كانت تنتظره العائلات كي تخرج فيه إلى المنتزهات والحدائق مستمتعةً بالوقت مع بعضها ويتخللها شعور بالحب والسرور، كنت فيه وحدي مع جدتي يسودنا الصمت.

كلانا في رأسه يتحدث ولكن ثمة اتجاه معاكس لكل واحد فينا، ومن الصعب أن يلتقيا فاتخذنا الصمت منطقا لنلتقي.

بينما نحن جالسين قلتُ لجدتي أودّ أن أجلب شيئًا لأشربه، فقد جف ريق الكلام في حنجرتي.

قالت لي :اذهبي ولاتتأخري ، سأنتظرك هنا فلا قدرة لي على المضي معك.

وبينما أنا أمضي في طريقي لأحد المحلات المجاورة للحديقة شعرت أن شخصًا ما يمشي خلفي، وعندما التفتُ إذا بها امرأة.

شعرت أن قلبي كاد يخرج من مكانه وكأني أعرف تلك المرأة

إحساس عميق كاد يلف الأرض بي، كان جسدي ينتفض بشدة لدرجة أني وقفت والتفتُّ ثانية فتوقفتُ وتوقفتْ، أصبحنا متقابليتن، ننظر في وجوه بعضنا البعض..

انتفاضة من اللا شيء حدثت بداخلي، حتى روحي تمردت..

لم أسْألها عن سبب تتبعها لي..

هل قرأتُ تعابير الألم في وجهها الشاحب؟، أم أشفقت على دموعها التي كانت تنهال كالرصاص على خدودها؟ ؟

في هذه اللحظة ما كنتُ أعلم هل أهرب من تلك المرأة أم أنتظرها حتى تتحدث؟

وقَفت تُطلق سهام الحديث وتوقظ المدائن النائمة وتعبث بخصلات الوقت وهي صامتة، تتنفس بشدة وكأن أنفاسها تود لو أن تنفجر بوجهي..

يثقلها عبء الحديث في صدرها ويلوي ذراع خواطرها..

لم تعلم حينها كيف تنوي الحديث، من أي رصيف تبدأ جمع كلماتها وعند أي موقف سوف تقف لتعبر الشارع وتتحمل عبء المسير وحدها؟

مدت يداها المرتجفتان لتلمس وجنتي لكني ابتعدت، اقتربت مني خطوة تنظر إلى عيوني الناعسة وتود أن لو تكن سوادهما.

كانت تود أن ترتمي على وسادتي وتغفو في البعيد، كانت تود التقاط ذراعي والسباحة كالأسماك في صدري..

كانت تشتهي أن تفتح قلبي، تشتم مسكي، عبقي وأن تتخلص للحظات من الأوكسجين الاصطناعي..

النظرات بيننا كانت أحد من السيف وأكثر نعومة من ورق الورد، ملابسة غريبه أوقفتني عن فهم ما هية الموقف ولا أدري حينها كيف استطاع الهدوء أن يمسك لسانها عن الكلام؟

إلا أن كثير من الأحيان يحدث أنه في اللحظة التي انتظرت فيها قدوم أحدهم لتخبره بما يجوب في صدرك يهرب الكلام منك و حبل من صوتك يستطيع أن يحرك الحروف لتبدأ؛ فتترك كل شيء وتنهمك في ترتيب الكلام وهو عالق تحت لسانك.

بعد هذه النظرات المطولة أدرتُ جسدي لأهرب عنها لكنها تتبعتني بقوة الحديث في صدرها وأمسكت ذراعي ثم قالت :

توقفي.. لا.. لا ترحلي عني فالراحلون قبلك أنهكوني..

أودّ أن تعلمي كم أنا أحتاج إليك، أحتاج إلى أذنيك لأصب الحديث في صملاغها، أودّه أن يصل إلى قلبك..

تعالي نجلس في مكان بعيد عن الحديقة..

اجلسي أمامي..اجلسي على الأرض.. اجلسي على قلبي ولكن أنصتي لي لمرة واحدة، ففي الوقت الذي كنتُ أحتاج فيه إلى حضن أمي كُنت قد حضنتُ ذراعيّ..

في الوقت الذي كنتت أبحث فيه عن بحر أذرف فيه دموعي كانت تنتهي القطرات تحت أزرار قميصي وتغشى الأحلام فوق قفصي الصدري ليكون المنفى من عالم لم يأبه لدموعي.. لأحلامي.. لفرط

الحاجة العاطفية وكثرة المحتضرين في قبضة قلبي الصغير قلبي الذي يحتوي على خلايا روحية تعجز العيون المُبصرة عن رؤيتها.. عن معرفة ما هيتها.. عن التدقيق بالحزن العالق في أصابع ذاكرتها.....

كانت تحلق فوق رأسي طائرة الأفكار السّامة، والخوف يلتفت حولي يخاف سقوط قنابل فكري..

يخاف أن يُعتصر في شراب النعم والقبول والرضوخ لأشياء أوسع من أفواه الشاربين، وهذه حالةٌ مخيفةٌ تدقُّ بكعب قدمها فوق الأرض البور..

شيءٌ ما فيّ ينتزع الورود التي زرعتها وراحت تواصل النمو في تربة لم أخترها، إنما خلعتُ حباتها في مساحة محصورة بين ذراعي..

لم أكُ أجدُ تفسيرًا لكل هذه الأمواج الطاغية الجائرة التي تبغي عليّ، تسرق الأيام مني، تشغلني بالخوف.. الخوف المحكوم بكل تفاصيلي الكبيرة والصغيرة وتلك النائمة وتلك التي لم تأتِ بعد، وتلك التي كان عذرها أن السُبل إليَّ مغلقة..

كنتُ دائمة الاعتقاد أن هذه التفاصيل سوف تحِلُ لعنتها على صفحاتٍ مجهولةِ التاريخ، ولا يُخفف من وقع خوفي إلا أنها لازالت مجهولة..

وخيط الأمل يلهث في ضوضاء عالمي....

***

رغم أني لم أكن حينها قد تجاوزت الثامنة عشر من عمري لكنني حملتُ عجوزًا في داخلي، كالتفاحة الزاكية، شهية المنظر محمرة الوجنتين لكن وعند أول قضمة تخرج العجوز منها لتُشعرك بطعمها المائل للحموضة..

لقد كنتُ متورطةً بأشياء لا أعلمها، برموز لم أستطع فكها بطلاسم يعجز عقلي عن إدراكها..

كنتُ أجلس دوما أمام نافذة غرفتي المطلة على محطة القطار..

ذاك القطار الذي كان يمر في رأسي يقلقني، يتفشى بأنحاء مسامعي حتى يُغشى عليّ من الخوف.. الخوف من ماذا؟.. لا أدري.

كنتُ أُحاول الكذب على نفسي بالأمل، لكن ثمةَ أشياءٍ كثيرةٍ تحدثُ تعيدُني إلى الحلقة الفارغة التي قد ضِعتُ فيها..

أنا الآن هنا ربما هناك عالق في أنقاض اللا شيء وصرختي لا تصل لمنقذ وهذا شيء مؤلم.

رأسي يتحدث يصرخ يتمتم يُحدِث مجزرة بصمت يقتلني ربما يسفك دم الحياة في طريقي.

أذكُر يوماً فكرت فيه أن لا أسمع لما يجوب في داخلي، أن أُغلق صناديق فكري وأعطي ظهري لكل الخوف وأمضي.

عزمتُ على ذلك دونما تفكير، وكأنني أنتظرُ قوةً في داخلي تعينني على أن أترك كل هذا وأمضي .. أشد نفسي على المشي أصرخ كفى وقوف هناك طريق لابد أن أسيره...

كانت الحياة حينها أشهى وكان الضوء الساطع أقوى من الشمس ..

فتحتُ نوافذ غرفتي مصرة أن أسمع صوتَ القطار ولا أسمع فيه خفايا الانتظار والأمل القادم وضجيج الروح المفعم بالشجن

حينها كانت السماء قد انهمرت بالمطر محاولةً إلقاء القبض على غيمة من قلبي لتحشوها بالدموع، والريح تهز الشجرة التي كبرت قرب نافذتي فمنذ صغري وأنا أدركها حتى أينعت.

ربما كَبرنا معا..

قشعريرةٌ غريبة لمست روحي، أوقفتني عاجزة عن فهم إيماءاتها فأغلقتُ النافذة.

جلستُ أمام المدفئة لأشعل الحطب، وعند أول فتيلة انتقل وجهها الآخر ليومض في صمتي.....

وحدي أنا الآن لستُ أملك أختا أحدثها عن العوز الروحي، أصبُ في مسامعها هذا الضغط النازف من شرفات اللا شيء..

وذاك أخي فارس البالغ من العمر خمسًا وعشرين عقليته الشرقية لا تسمحُ له بأن يسألني عني، عن أناي الهالك في الصمت، عن الصورة الفارة من ذاكرة مجروحة ..

طوال وقته منشغل، منهمكٌ في عمله ومساؤه مبعثرٌ في السهر واللهو مع أصدقائه، أما أمي حنان قد أتقنت فن الضيافة عند اسمها لم تملك منه سوى حروف تخبئ ورائه ليل، ليس لأنها لا تملك الحب لكن هالات المجتمع الملتهب قيدتها فيه، حتى لم تعد تستطيع أن تمد يديها لتعانقني، إنها شرقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تؤمن أنها لا تستطيع أن تفعل سوى الطعام وترتيب المنزل وتلبية الحاجات، أما باقي أشياءها فهي ثانوية، قرراتها غير مؤهلة كي تُوقع فرب البيت هو الأحق بذاك.

كنت أرى فيه القائد المخيف، كان لساني يهرب مني كلما نظرت لجبروته ..

لا أعلم لمَ كل هذا الرعب؟ !

لماذا تتحول العلاقات الدافئة إلى علاقات محصنة تقتل فينا روح الحب؟

لماذا نحرم أنفسنا التمتع في اللحظات الودية مع منهم أحق بملامستها؟

لماذا لفرط حبنا للطيور نقوقعها ضمن أقفاص لا تفهم الحرية؟

لماذا تحت رحمة الغير نبقى عالقين نحتمي بِهم كي يرضوا ولا نجد من يرضى عنا؟

مخضبون بالشجن أكبر همنا صورة فوتوغرافية يراها الناس جميلة وخلفها أجساد تذوقت معنى الفتيل الموقوت..

معنى أن تحرص على نظراتهم عنك وأنت غير راض عنك..

وفي وقت متأخر من الحياة تتأسف ..

تود لو أنك لم تكن إلا إليك، في الوقت هذا يكون أناك قد ارتحل وتحلُّ عليك اللعنة، تأخذك إلى دار لا سلام فيه، وتتضاعف عليك الضرائب التي ستدفعها ثمن أشياء كانت تحتاج لهوية تعريف من الحنان والعواطف الموقوتة التي تنتظر ومضة كي تشتعل..

وقبل أن أنهي محادثتي الصامتة أسمع جرس الباب يطرق، مشيت مسرعة نحوه وأدرت المقبض الذي كان يفتح مصراعيه علي:

أهلا جارتنا {منال }أم "إياد"

أهلا بك "لمار"

كيف حالك؟

الحمد لله وأنت كيف حالك؟

الحمد لله

قلت لها يومها :

تفضلي.. إن أمي في المجلس تشاهد أخبار الساعة السادسة.

اتجهت إلى الغرفة وهي ترمقني بنظراتها الغريبة، بينما أبي واقف في الشرفة، وعندما سمع صوت جارتنا هرع مسرعاً إلى الغرفة وألقى التحية عليها مستغربًا من مقصد الزيارة، فهي منذ قرابة الشهرين لم تزرنا.

تبادلت أم "إياد" نظراتها معي، لكن أشحتُ عيني عنها وأنا أفكر...

قالت لي أمي :ضعي القهوة لأم "إياد".

خرجتُ إلى المطبخ وكنت أُحاول أن تتغلل مسامعي إلى الغرفة كي أعلم سبب مجيئها.

ما إن انتهيت من صنع القهوة عدت مسرعة إليهم وإذ بوجوههم ضاحكة، حتى أبي منذ فترة لم ألمح معالم الفرح في محياه هكذا ..

فما الذي جرى في هذه الدقائق القليلة؟

انحنيت نحوها وبيدي فناجين القهوة وأصابعي بين فناجين القهوة ترتجف ..

أخذت أم "إياد" الفنجان وهي تبتسم مجدداً..

ثم قدمتها لأمي وأبي وجلست قربهما وفي رأسي استفهامات تنتظر من يطورها إلى إجابة.

خرجتُ من الغرفة ودخلت إلى المطبخ كي أشرب فنجان قهوتي إلا أني سمعتُها تسأل أمي هل يناسبكم يوم الخميس القادم كي نطلبها رسمياً.....

قالت أمي: الرأي للرجال في هذا

رد عليها أبي : نعم يناسبنا ذلك، ولم لا.

حديثهم شق استفهاماتي دون رحمة للقتلى بين تلافيف أدمغتي ..

في هذه اللحظة تمنيت أن أفك اللغم قبل أن ينفجر ..

تعطل رأسي عن التفكير كما تتعطل آلة التصوير عن جمع الأشياء في صورة واحدة ..

حتى فنجان القهوة الذي كنت أُريد احتسائه ابتلعنِي..

انتظرتُها أمام باب المطبخ بفارغ الموت كي ترحل لكي أرفع الحجب عن ما سمعت وهل كنت المقصد؟

أم "إياد" غادرت على ايقاعات صبري، خفت حينها أن أسأل أمي أمام أبي، لوحت لأمي بيدي من باب المطبخ المجاور للغرفة كي تخرج، خرجت ببطء متعمد كاد يقتلني ..

قالت حينها أمي : ها أنا أتيت. ما الذي تريدينه؟

-قولي لي ماذا تريد أم "إياد" وعن ماذا تحدثتم؟

-لقد تحدثنا عنك.

-عني؟

-وهل أنا حديث شهي حتى تقام عليّ ما ئدة؟

-لاتحاولي استفزازي بكلامك، لقد أتت لتطلبك لابنها "إياد"، تريد أن تفرح به، فهو وحيدها وكما تعلمي أن زوجها متوفي وتعيش هي و"إياد" وحدهما ولقد وافق أبوكِ وأنا لا يحق لي الرفض فالكلمة للرجال كما أنني أرى أن "إياد" لا يشكو من شيء.

على كل حال الخميس القادم يوم الطلبة وستصبحين بعدها أجمل عروس وترتدين فستانك الأبيض.. فالأبيض يليق بك.

قلتُ لها :

لا يا أمي الأسود يليق بهذه المناسبة ..

أي أبيض تتحدثي عنه؟ ؟

قالت أمي: إنك لن تفهمي معنى ما أقول ..

عندما ينضج عقلك وفكرك سوف تفهمين معنى ما أقول وأني على حق

أجبتُها:

أمي، أيُّ حق وأنتم تحكمون عليّ بالموت المستعجل .. بزرع الصبار على جسدي، بانحناء الربيع فوق تربتي التي ما حصدتُ منها شيء

خرجت أمي مسرعةً من غرفتي تهرب من كلامي وتعلم أني لن أستطيع اللحاق بها فأنا أضعف من أن أواجه أبي في هذا الكلام.

هرب كل شيء مني، أغلقت باب الغرفة وانحنيت نحوه ...

ابتعدت نحو اللاشيء ..

لم أعد أشعر بارتجاف جسدي على الأرض، كان العالم واقفٌ أمامي وأنا أدور حول المجرات والكواكب أبحث عن ثقب أخرج منه..

كيف سأمحي هذه المهزلة ...؟

كيف سأُهيئ جيشاً لِيُحارب معي وأنا لا أملك صوتا يقول لا؟ ؟

محكوم علي بالخوف.. بالصمت ... بالممنوعات الكلامية.

في هذا الوقت الذي كنتُ مثقلةً فيه قررتُ أن أحلل لنفسي كلمة لا وأن أخرج حيث أبي لأقول له لا.. لا أُريد الزواج..

أُريد أن أنهل في علمي....

وشجعت لساني على قولها أمام المرآة وفتحت الباب أمام نفسي ومشيت خطواتي المرتجفة حتى وصلت إلى الأريكة التي يجلس عليها فنظرت إليه حتى انتبهت لواحظه أنني أنظره..

هز رأسه وكأن يسألني ماذا أُريد؟

قلت دون كلام مسبوق لا أُريد .. لا أُريد الزواج

انتفض الغضب في عينيه وصكَّ أسنانه ثم صرخ بصوت كاد ينفجر في رأسي..

سمعتُ الرعود والأعاصير ..

رأيتها تهب من لسانه ..

قال لي :

منذ متى وأنت تفكرين في هذا؟

من قال لك أني مستمعٌ إلى رأيك؟

كيف تجرأتِ وقلت ذلك؟

والله لو أن يوم الخميس ليس يوم طلبتك لأبرحتك ضرباً..

أتدرين أنني لو سمعت هذا الكلام مرة أخرى ماذا سيحصل لك؟

سأجعل من جسدك غيوم وطرق معوجّة.

ثم قال لي:

أُغربي عن وجهي ..

وأخذ سجائره إلى الشرفة ليدخن غضبه

***

حاولت أن أغلق أُذني عما قاله أبي لكنّ صوت الرصاص في كلامه كان أقوى من أن تسده قطعة لحمٍ من إصبعي..

هل سيحدث هذا حقا؟

أنا لا أستطيع أن أشفى من جرح ما سمعته..

كيف لي أن أنفذ حرفياً؟؟

يتدرج الموقف يمزقني ...

لقد وافق أبي على زواجي من "إياد" ابن الجيران ..

وقد حددوا موعداً ليقرأوا فاتحتي عليه، وبعد فترة لا تتجاوز الشهر سيتم تزويجي له...

كلمات فقط قتلتني .. فعلت بي ما لم يفعله خنجر !!

أمسكتُ بطرف ثوب أمي، توسلت إليها بشدة ..

أرجوكِ يا أمي لا توافقي.. فأنا لم أتجاوز الثامنة عشر بعد .. أُريد أن التحفَ بكتبي المدرسية.. أُريد أن أصبح في الجامعة.. أُريد أن أصبح كاتبة مشهورة ....

أُريد أن أجد رجُلي بين أوراق العشق، في حبات البن التي لم تتذوق حلاوة القهوة المرة ..

كيف سأستطيع العيش معه وأنا لا أعلم منه سوى اسمه وما قاله الجيران عنه؟

كيف أستطيع أن أفهمه وهو لا يعلم من الحياة إلا الطين والرمال التي يبني بيها بيوتاً ويهدم فيه ما بدأته؟

هولم يحلق مثلي في بناء أحلام غير مرئية، أما أنا فأتقنت ذلك، أنا سبحت بين النجوم وهو غارق في وحل البناء..

أمي.. يا أمي ...

إنكم تُجبرونني أن أصوم ولا أفطر، وأحرق الحقول في صدري ..

إنكم تُجبرونن على أن أشتم رائحة الحريق في كل لحظة ستمر ..

إنكم تُريدون تلويث هوائي بثاني أكسيد الاغتصاب...

قالت أمي :

كفى.. ما هذا الكلام؟ لو سمعك أبوك سيقتلك ..

وهل تظنين يا أمي أنكم لم تقتلوني بعد؟

إنكم تقدمونني قرباناً لعاداتكم وتقاليدكم، تطفئون نوري بضدكم للمرأة، وشذوذكم عن دين الله ..

فإن الله لا يقبل أن لا ترحموا النساء، أن تزجوا بها في قفص الزواج وهي لم تقوَ على أن تخرج أنفاسها من قفصها الصدري

دخل أبي حينها من الشرفة مسرعاً يسألني أمازلتِ تُتمتمين بعد؟ ألم أقل كفى؟

ألا تعين ما قلته لك؟، منذ متى والفتاة تقرر عن عائلتها؟

لاتجعلي الغضب فيّ يتحول إلى فعل تندمين عليه طوال حياتك.

الأمرُ مُنتهٍ، ما أقوله سوف يُنفذ ولا شيء آخر.

هززتُ رأسي من شدة الخوف وقالت له أمي:

"لا عليك سوف تقبل، وإنما هذا مجرد خوف ليس إلا"

أطبقتُ شفاهي وخرجت من الغرفة ومحطات الكلام لازالت تقف في حلقي.

في هذه اللحظات بدأتْ روحي تهربُ مني، وبدأتُ أرى العالم كله يتغير حولي ...

شغفي لشراء الأشياء بعد ذلك اليوم ليس ذاته، فقدتُ شفافية الأشياء وأنا لستُ على ما يرام.

فالروح التي تفقد شفافيتها يصبح الزجاج خلفها أكثر عرضة للكسر، فأيُّ حجرٍ يستطيع أن يخدش جوفها، قد تتحطم ولا شيء بعدها يعيدها إلى طبيعتها.

دخلتْ أمي إلى غرفتي، جلست على مقربةٍ مني ونظرتْ إليَّ بدهشة

تقول لي :ما الذي يجعلك حزينة إلى هذا الحد؟

أليس هذا فرحك؟ لا أعلم لماذا أنتِ تعارضين بشدة؟

ما الذي يجعل منك قارورة لا يُرضيها ما مُلِأت به؟

انظري يابنتي إلى الجانب المشرق في الاستقرار بالزواج، في الزوج والأطفال والحياة الجديدة التي تنتظرك..

كفاكِ حزناً واخلعي أفكاركِ وامضِ نحو ما كتبه الله لك

قلتُ لها:

الله يا أمي خيرني ولم يفرض علي الزواج من رجل لا أُريده، وأنا لم أتمم دراستي ولم أقوم بتلوين أحلامي..

لماذا تودون أن تصبوا الأسود فوقها؟

حينها غضبت أمي وقطعت حديثي ..قالتي لي:

لافائدة من الحديث معك، ولا تعتقدي أن عنادك سوف يُجدي، وصدقيني أن الأيام سوف تُقنعك بما قلت .

-أمي أنا لن أقتنع.. فأنا إلى الآن لازلتُ طالبة في المدرسة الثانوية، وما يهمني في هذه المرحلة أن أتعلم فحسب.

لم أعلم حينها أن أبي يقف خلف الباب ويستمع لحديثنا، فتح الباب بقوة غضبه واقترب مني، ثم صفعني على وجهي وبدأ يصرخ من قال لكِ أنك سوف تُكملين الثانوية؟ من الذي حدثك عن ذلك؟

أنتِ لم تكملي دراستك وتتكلمين بهذه الفظّاظة، ماذا سوف تقولين لو أنك تُكملين؟، هذا بعيد عنك ولاتفكري به على الإطلاق..

ثم انقض على كُتبي وبدأ يجمعها كُلها ليضعها أمامي ويفجر غضبه بتمزيقها وأخذ فتيل نار وأشعله بها، ثم اقترب مني وحدق بي بقوة قال لي:

أترين هذه الكتب التي تأكلها النار؟ أضعك فوقها أن سمعت كلامك ثانية. أتفهمين.. أتعين ما عنيته؟

-نعم يا أبي فهمت... فهمت جداً.

خرج من الغرف تاركاً لي رمادين، رماد النار التي التهمت الورق ورماد قلبي البائس.

لا أدري شيئًا، كل الذي أعلمه أني تغيبت عن هذا العالم كأنني فيه أو أنني خارجه ..

لعلي في قعر البحار أو على البر، لا شيء واضح سوى ضباب يحمل روحي داخل الضباب ..

لكن أنا لستُ ضد الزواج ذاته، أنا ضد عقولهم التي جرحتني خلاياها المعقدة ..

أنا ضد تمردهم علي ..

فكيف يستطيعون سرقة كراستي وطاولتي وأوراقي ونقلي إلى زوج لا أعلم عنه سوى أنه رجل؟

وهل تقاس الرجولة بالفارق بين الرجل والمرأة؟

فكم من رجال لم يحملوا في صدورهم سيوف الرجولة، وكم من نساء كن من غمد السيوف!!

صرختْ أمي بوجهي لتقول لي:

- أيُعجبك ذلك؟

ثم خرجتْ، أغلقتُ الباب خلفها واستلقيتُ على سريري كالمستلقي على الأشواك، كل شيء يوخزني.. يؤلمني.

كل دقيقة أنظر إلى الرماد وكأني لا أصدق ما جرى...!!!

كان الألم في رأسي شديد البرودة، والغيوم في عيني داكنة، تود لو أنها تنفجر ولكن السؤال أين؟ على الوسادة المحشوة بصرخاتي الليلية؟ أم على غطائي الذي أنهكته أنفاسي المدفونة؟

لم أعلم ليلتها كيف استسلمت للنوم، ما ئة لحظة مرت من رأسي وأتعبت فزيولوجيته الملحدة..

خال لي أني نمت لحظة ثم استيقظت خائفة، نهضت من فراشي أنظر الأشياء .. أتلمسها وكأنني أودّ لو كان ما جرى كذبة!

لكن ليس كل ما نوده يصبح حقيقة تعيش فينا، بل ربما تصبح غصة ود أن نتعايش معها ..

لملمت رماد الكتب ووضعتها في حقيبتي وركنتها فوق رف خزانتي كي أتذكر دوما أوراقي المحروقة، ربما كانت من ضمن الأوراق ورقة قد دونت فيها بعض أحلامي ..

أظن أنها احترقت بماديتها ومعنويتها ..

خرجتُ من غرفتي وغسلتُ وجهي لأنفضَ بعض غبارَ حزني ودخلتُ إلى المطبخ لأُعدَّ قهوتي وأبدأ صباحي بالقهوة المرة كي يعتاد بعضٌ مني على المرار.

دخلت أمي إلى المطبخ لتقول لي أعدي القهوة لنا جميعا، أخذت القهوة وذهبت إلى الغرفة، جلستُ على مقربة من أمي وأخذ كل منا فنجانه، ومن ثم أمسكت أمي الهاتف وكلمت خالتي رغد، سمعتها تقول لها بأن أم "إياد" ليلة أمس قد أتت وأرادت "لمار" زوجة لابنها وأن أبي قد وافق والخميس القادم بعد ثلاث أيام سيأتون ليطلبوها

رسميا ليحددوا موعد للعرس واليوم سوف أذهب إلى السوق لنشتري بعض الحاجيات ليوم الخميس أنا و"لمار".

ماذا بوسع فتاة مثلي أن تفعل في مثل هذا الوضع؟ هشة، ضعيفة، مسلوبة المنكبين !!

أهتز في نفسي، روحي تبرحني ضرباً كي أوقف هذه المهزلة، كي أفك تلك القنبلة قبل أن تنفجر بي، فانقباضُ الأحداث التي تجري يتعبني، وحده قلبي يسمع صيحات الموت في رأسي.

أنهتْ أمي المكالمة وهي تقولُ لي بصوتٍ منخفضٍ ما الذي يجعلك حزينةً وصامتةً إلى هذا الحد؟

ألا تريدين تحضير نفسك لنخرج سويا لنحضر ما نحتاجه ليوم الخميس؟

لاتثيري المشاكل ..

ألا يكفيكِ ما حدث ليلة الأمس؟

أنتِ لن تستطيعي مجابهة والدك، من الأفضل لك أن تقبلي بالأمر الواقع وتتعايشي معه بما فيه من حلاوة ومرار.

هيا أسعدي نفسك واستعدي لنخرج إلى السوق، سوف أذهب لأخبر والدك وأحضِّر نفسي وأنت أيضًا استعدي.

ارتديتُ ملابسي مرغمةً وكأن أجواء الكفن بين ثيابي ..

خرجتُ معها ولا قدرة لي على المشي، حينها شعرت أني أودّ أن أعود للمنزل كي أنام لأنسى كل ما جرى حولي وأبتعد عن يقظتي الموحشة التي تُشقي أرق لحظات وجودي ..

صرخت أمي بوجهي ونحن نمشي:

كُفِّي.. كُفِّي عن هذا.. منذ أن خرجنا وأنتِ عابسة.. لا شيء يعجبك أنتِ لستِ أول ولا آخر فتاة تتزوج وهي لاتود ذلك، مع مرور الأيام سوف تحبينه وسوف ترضين بما جرى به القلم.

الخميس هو يوم الخطبة الرسمي وكل شيء محسوم ولن يتوقف أي شيء لمجرد أنكِ قلت لا، اقتنعي بذلك وافرحي بهذه اللحظات قبل أن تصبح ما ضِ تتحسرين عليه.

مشيتُ معها مستسلمةً للواقع الذي جعلني دميةً بين أيديهم يحركوني كما أرادوا هم.

أمي كانت تشتري ما تجده مناسبًا، حتى الفستان لم تكن لدي رغبة بأن أحرك شعوري نحوه، أن كنت قد أُعجبت به أم لا.

نظري للأشياء أصبح جامدا، فقدتُ حاسة الحياة وهنا أقسى ما كان يدور حولي ..

نادتني أمي يومها بعد أن بقيتُ واقفة خارج أحد محلات الثياب وقالت لي :

كنتُ قد رأيتُ فستانًا أحمر اللون وجميل، ما رأيك أن تقيسيه؟

قلتُ لها : دون أن أقيسه، نعم قياسه مناسب وجميل سوف آخذه دون أن أجربه.

أُريد أن أعود إلى البيت فقد تعبت وأصابني صداع من الضجيج

قالت حينها والغضب يحقن الدم في وجهها:

-"لمار" ... ما الذي جرى لك؟؟

كيف نذهب إلى البيت وإلى الآن لم تشتري الفستان المناسب؟

فأجبتها وأنا في غاية الألم :

قلت لك يا أمي يبدو هذا الفستان الذي وجدتِه مناسب

أخذتْه أمي ونظرت إليَّ بعيون النسر وكادت ترفع يدها لتصفعني ولو لا أننا في السوق وليس هناك ما رة لفعلتها.

اشترتْ أمي الفستان وخرجت من المحل وعدنا أدراجنا إلى المنزل وكانت أمي طوال الطريق صامتة لم تتحدث بكلمة كنت أنظر إليها أرى الغضب يتصبب كالعرق على وجهها ولكني لم أُحاول حينها أن أفهم سبب كل هذا لأن بداخلي الجواب.

كنت دوما أفكر ما ذنبي أنا؟ لماذا رغم أني الضحية تود أن تريني السكين بيدي؟

الله قد جعل الإنسان مخير قادر على اتخاذ القرار وحده لكنهم هم سحبوا القرار من يدي ويريدون محاسبتي على غير جرم.

ما أن فتحتْ باب البيت أمي ودخلت حتى بدأتْ تصرخُ بأعلى صوتها:

-يكفي.. يكفي.... مع مرور الزمن ستحبينه، ستتوددين له

ما الذي أصابك؟، فمنذ الآن وصاعدا لا أودّ أن أسمع شيء بخصوص هذا الموضوع ولاتناقشين فيه ثانية، فغدا هي فاتحتك على "إياد" وكل شيء يجري على طريق الزواج، الأفضل لك أن تستسلمي وبدلًا من الحزن الذي تتقوقعين فيه أسعدي نفسك وافرحي للمرحلة الجديدة التي ستخوضينها....

تركتها أمام باب المنزل ودخلت إلى الغرفة وكل شيء مستسلم بداخلي، شعرتُ كأني دمية موصولة بخيوطهم وتحركني تبدلات أصابعهم.

في هذه اللحظة بحثتُ عن منفى أبعثر فيه هذا الجبل الذي يبني ثقله فوق كاهلي، لم تكن أمامي سوى وسادتي المعتادة، دفنتُ رأسي فيها ودفنت فيه بعضَ صراخي الذي خِفتُ أن يتسلل إلى مسامعهم ..

دخلت أمي إلى غرفتي دون أن تحدثني ووضعت الفستان على مقربة مني وخرجتْ.

أمسكته بغصة تلهثُ في رأسي، فقد كان وجوده في هذه المرحلة لئيم جدا. كنتُ أتمنى لو أن الظروف لم تكن ذاتها؛ لكان للفستان معنى أرق ومكانة أعلى من ما ديته.

فكثيرة هي الأشياء الجميلة التي تأتي بالوقت غير المناسب فنفقد إحساسنا بجماليتها، ليس لأننا كرهناها؛ بل لأنها لم تنهمر كالمطر على نوافذ قلوبنا، بل طرقت بالفأس حتى حطمت الزجاج فينا..

بقيت وقت طويل وأنا أدور حول نفسي وأتقلب يمين أفكاري ويسارها، تارة أبكي في ظل أحلامي التي فقدت شهية الحياة وتارة في غابة الواقع المخيف الذي لا أعلم منه سوى الزواج..

تقلقني ساعة الوقت التي تمشي على عجلة من أمرها على غير عادتها،كأنها تركض حتى تصل إلى اليوم الذي تَحدد ليكتبوا كتابي ويُغلقوا كتابي قبل أن أسطر كلماتي الوردية ..

منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى غرفتي حتى اليوم التالي وأنا في مكاني كنت قد دخلت في حرب مغلقة كنت فيها المقاتل والمقتول والضحية كنت فيها المدينة المهدمة والبيوت الفارغة والشوارع

الماطرة والإشارات التي لم تتوقف لأحد، إما أن تستطيع المرور مسرعا أو أنك حتما سوف تلقي حتفك..

فتحت عيوني وكأني لم أكن نائمة ولكني ملقاة على السرير، لمستُ يديّ ونظرت لجسدي وكأني كنتُ معلقةً بين السماء والأرض ولا شيء قد أعادني سوى الأوكسجين، ولا أستطيع أن أقول أنفاسي لأنني لم أكن قد تنفست من روحي؛ وإنما حصلت على أوكسجين الحياة فقط..

نهضتُ رغمًا عني، وشهوة النوم تريد أن تبتلعني، ولكن لا مفر لابد من أن أستيقظ ...

كالعاد شربتُ القهوة ورتبت المنزل مع أمي وساعدتها في تجهيز الحلويات للضيوف الثقيلين.

بعد أن انتهينا قالت لي أمي:

- يجب أن تذهبي إلى صالون التجميل كي تظهري بمظهر رائع

قلت لها: بالفعل علي فعل ذلك، فلا داعي لأن يرى التشوه في روحي ييجب أن أكسر انعكاس روحي على وجهي؛ كي لا يرى الضعف والحزن العالق فيها .. أليس كذلك؟ أليس هذا ما تريدونه؟ ؟

قلما الحمرة والكحلة التي سوف أتجمل بهما قادران أن يخفيان الندوب في روحي لكنهما لن يُمحياها ستبقى عالقةً فيها وستبقى جرحا نازف يشتد كلما هبت رياح الذكرى ..

لم تحاول مناقشتي، اكتفت بهز رأسها ثم قالت أن لم تذهبي سأدعوها هي للمنزل كي تُجملك، فإني أعتقد أن أباك لن يوافق على خروجنا إليها والتأخر.

حدثتها عن شيء وتحدثت عن آخر وكأنها حاولت تجاهل حديثي وكلماتي العالقة كالصبار في حلقي ..

ذهبت من أمامي تُكمل الأمور وحدها كأنه لا علاقة لي بالحدث الذي يجري سوى القبول بكل شي مفروض منهم، وفعلتْ ما تُريد ودَعَتْ صديقتها كي تأتي وتُجمِّل اللوحة الباهتة في وجهي.

تبا لكل شيء يجري، أرى كل ما حولي يهزمني وأنا أكره الهزيمة ولا أعلم أي سبيل لقبولها ..

تزينت، ولبست الفستان المزركش وجلست أنظر لنفسي في المرآة وألامسها، كنت أُريد أن أعتذر لها عن الأخطاء التي علقتُها فوقها لكن سمعت باب المنزل يدق وكانوا هم، شعرت أن قلبي يكاد يُطرح أرضا ..

أصابني الجنون ورحت أفتش في غرفتي عن مكان أُخبئُ فيه نفسي، أُريد لو أن أصبح كذبة، أُريد أن أتحول لريشة في جناح عصفور..

أُريد أن أختفي عن هذا العالم الضيق الواسع ..

ولكن البعد ليس له وجود في هذه اللحظات القدرية، وفي هذه اللحظة يعكس الحلم حروفه ليحولها إلى ملح ينصب فوق جراحي.

دخلت أمي إلى غرفتي لنجلس بالقرب من الغرف التي يجلس فيه الرجل كي أقول للشيخ الذي يعقد القران أني موافقة.

وعندما قال الشيخ هل أنتِ موافقة شعرتُ أن لساني التصق بحلقي، لم أكن أعلم ما الذي يجري في داخلي والهدوء قد ساد في المكان..

كانوا ينتظرون ردي..

لكني بقيتُ صامتةً حتى خرج أبي غاضبًا ووقف أمامي ويداه تلتفان حول عنقي.

همس في أذني خيفة أن يسمعه أحد قولي نعم وإلا ستموتين ..

هنا الخوف قيَّد روحي؛ فصحت بقوة.. نعم نعم نعم..

كررتها بدافع الخوف الذي يحاول قتلي ثم تركني ودخل إلى الغرفة أمي لم تأبه لهذا وأطلقت الزغاريد، والنار تأكل ما تبقى مني، لأصبح هشة أكثر من هشاشتي.

أتت أمه بعد لحظات وفي يدها خواتم الخطوبة وعندما خرج الشيخ من عندنا دخلت أمه ودفعتني أمي بقوة إلى الداخل.

كان أخي وأبي و"إياد" جالسين بالقرب من بعضهم وجلستْ أمي بالقرب من أبي وأنا لازلت واقفةً عند باب الغرفة يفصلني بينهم الذهول..

والدمع يتأهب في عيوني ..

اقتربتْ مني أمُه (منال)وأمسكت يدي لتجلسني قرب "إياد"

قالت: لاتخجلي؛ فهذا سيصبح زوجك ومسؤليته من اليوم وصاعدا.

ثم فتحت العلبة التي بيدها وأخرجتْ الخواتم وأعطتني خاتمه وأعطته خاتمي، مددتُ يدي والثلجُ يتساقطُ في أصابعها وصوتُ الرصاصِ يهمسُ في أذني اليوم أنتِ مقتولتي.. فهنيئا لي بك.

طرحوني خارجهم وبقيتُ معهم في لحظة سيئة المزاج وضعت الخاتم في إصبعه ووضعه لي، حملته رغمًا عن إرادتي، وحملتُ الهزيمةَ فوق ظهري ومن حولي يمارسون الفرح، يفعلون أكثر مني متناسين أني من يجب أن تفرح قبلهم ..

أمسك يدي دون أن أشعر فالتفتُّ إليه والبارود المحروق في عيني يكاد يصل إليه ..

أفلتُّها بسرعةٍ وأبعدتُ نظري عنه، ربما لحظتها اعتقد أنني أخجل، ولكن لو علم أنني مرغمة هل سينهي كل شيء؟

لا أعتقد أنني أملك القدرة على قول ذلك؛ لأنني أعلم ما سيفعله بي أبي.

نظرتْ إليَّ أمي وأبسمتْ شفتيها، تحاول أن تقول لي بهذه الحركة ابتسمي فالعبسوس يملأ وجهك لكني لم أقوَ على فعل الابتسامة، لأن كل ما فيَ يبكي حتى إصبع يدي يُشعرني أنني وضغته في زنزانة مظلمة لايكاد يرى ظله ..

ساد صمت طويل بين الجميع ثم قال أبي ما رأيكم أن نخرج للجلوس في الشرفة ونترك "إياد" و"لمار" يتعرفان إلى بعضهم البعض؟

وافق الجميع على اقتراح أبي .. بقينا وحدنا.

طوال الوقت ينظر إليَّ ويبتسم وأنا أُحاول ألا أطيل النظر.

لايمكنني ذلك، ليس لأنه قبيح المنظر؛ لكن نظراته غير العادية كانت قد أربكتني وجعلتني أخجل من نفسي.

ثم قام من مكانه وجلس على مقربة مني وقال لي:

- لاتخجلي، فسوف تصبحين جزءًا مني.

أتدرين يا "لمار" أنني في الوقت الذي كنتي تعودين فيه من المدرسة كنت أقف على نافذة غرفتي المطلة على الشارع لكي أراكِ؟

لقد كنتُ معجبًا بك، حتى أنني أخبرت أمي وقالت هي أيضًا أنها كانت تود أن تكوني لي زوجة، فهي تحلم باليوم الذي تُزوجني فيه ونملأ لها المنزل أطفالا. بالمناسبة لن تكملي دراستك أليس صحيح؟

أجبته: نعم ولكن لمَ تسأل؟

قال لي: أُريد أن يطمئن قلبي، لأني لا أحب لزوجتي أن تكمل تعليمها، فالمرأة في نهاية المطاف لزوجها وأولادها والعلم ليس له مكان بيننا، وأيضًا ليس من الجيد للمرأة أن تخرج من المنزل كثيرًا فجنتها هي بيتها.

بلعتُ حينها غصَّاتٍ حديثة وتناولت كوبَ الماء من على الطاولة وشربته كي تغرق غصتي بالماء قبل أن تخرج.

قال لي: وأنت ما رأيك فيما قلته أليس منطقياً؟

قلت له: إنني لا أوافقك الرأي، فالعلم ضروري للمرأة وسلاح لها في لحظات تنقلب فيه الأيام عليها فتواجهه بعلمها، كنتُ أتوق لكي أكمل تعليمي لكن أبي لم يوافق.

تراجع قليلًا إلى الخلف وهزَّ رأسه كأن لم يعجبه كلامي، ثم غير الموضوع وقال: أظن أن أمي قالت لوالدك أن العرس سيكون قريبًا، فنحن لا نود أن نتأخر في فترة الخطوبة.

مدَّ يده في جيبه وقال لي خذي هذه النقود واشتري ما يلزمك ليوم العرس، وأي شيء تحتاجينه اتصلي بي ولا تخجلي.

لم يكن هناك أيَّة فائدة سوى أن أهزّ برأسي.

أغمضتُ عينيَّ كي أعيد الدمعة إلى مجراها قبل أن تخرج.

رأيت شفاههم تكاد أن تُشق لكثرة ضحكهم حتى خُيِّل لي أن أزفهم بدلاً مني.

وقفت أمه منال بالقرب مني وقالت تأخر الوقت يجب أن نذهب وسيكون لنا فيما بعد لقاءات كثيرة.

وما أن خرجوا حتى هرعتُ مسرعة إلى غرفتي، فالذي جرى حمل ثقيل أحتاج أن ألقيه قليل على السرير.

استلقيتُ عليه كالمشتاق إليه وفي صدري رغبة ملحة للبكاء.

أخذت وسادتي وحضنتها لحاجة الحنين بداخلي تمنيت أن تكون لها روح كي تشعر بثقل الوقت والأحداث التالفة في رأسي.

أعتقد أنه كان يجب أن أرفض كل شيء يجري ولكن كيف وجميعم قد حاصروني حتى أمي لم تعِ الحزن المنسوج في روحي.

هي لم تحاول فهمي.. لم تحاول أن تعي ما يجوب في خاطري فأنا لم أكن أرفض الزواج بحد ذاته وإنما كنت أرفضه في الوقت الراهن الوقت الذي يجب أن أتعلم فيه.

كنت أُريد أن أصل لمرحلة من النضج قبل أن أخوض مرحلة الزواج فهي مسؤلية كبيرة وأنا لم أنضج بعد لازال قلبي هوائيا ما يحبه اليوم قد يكرهه غدا ..

يأستُ من أن تحتويني عقولهم، بل يأستُ من كل شيء فيهم ..

بقيتُ طوال الليل أتقلبُ كالمذبوح على السرير، تهتُ في دوامة مغلقة لم تفتح لي حتى ثقبًا واحدًا أرى من خلاله النور الذي ينقصني ..

إذًا ما فائدة عيوني وأنا لا أرى إلا الظلمة؟

رحت في نوم عميق أبعدني عن العالم حتى اللحظة التي استيقظت فيها على صوت أمي وهي تقول لي هيا انهضي إني قد جهزت القهوة تعالي لنحتسيها.

قمت مرغمةً من فراشي وشهوة اللاوعي تودُ لو تبقيني نائمة كي لا أذكُر ما يحصل حولي ..

نفضت غبار الحزن عن وجهي بماء كاذب وخرجت من غرفتي إلى الغرفة التي يجلسون فيها ..

كان أبي جالسًا في الغرفة منحني الرأس، عاقد الحاجبين كأنه يحاول ألاينظر إليَّ وأنا كنت أُحاول أن أبقى صامتة كي لا يناقشني بما قاله لي ليلة الأمس ..

جلست معهم قليلا ثم أخذت فنجاني وعدت إلى غرفتي لكي أستمتع بقهوة مطحونة، بيد من مرار، كانت هذه القهوة تشبهني..

فيها شيء مني..

المرار مشترك بيننا ولكن أنا مهما حاولوا وضع قطع السكر بداخلي لن يتذوق الحلاوة المسروقة..

في تلك اللحظة دخلت أمي إلى غرفتي وبيدها قلم وورقة..

جلست قربي تحدثني عما نريد شراءه وأنه علينا أن ننهي شراء ما نريد في غضون يومين أو ثلاثة أيام لأن أبي لا يريد لنا أن نخرج كثيرا من المنزل.

ضحكت كثيرا وأتممت شرب فنجان قهوتي واستيعاب كلماتهم المليئة بالدماء ..

أثارت ضحكتي الغضب في أمي وبدأت تصطكُّ أسنانها محاولةً ألا تنفجر في وجهي وأبي في المنزل، ثم قامت من أمامي وخرجت دون أن تُكمل ما تريده مني.

لم يكن بوسعي سوى البكاء ففي داخلي عاصفة دمع تود أن تلقي رحلها فوق ثيابي وحروف عاجزة عن أن تكون عكازًا تسند كلماتي يا الله.!! الذنب ذنب من؟ من الذي قادني لأكون خريف الفصول وقطرات المطر الهاطلة فوق نوافذ المحزونين.

في كثير من الأحيان يقودنا الوقت مرغمين يسحبنا بقوته الحديدية دونما أن يشعر بثقل الرفض الذي يأكل صبرنا.

ها أنا قد ارتديت ملابسي للخروج معي أمي، وهنا في قلبي معركة لم تتوقف، وهنا بين جنبي أناي يقف رافضاً ومستسلمًا في أن واحد، كانت الهزيمة تسبق كل خطوة أمشيها وأمي كانت تشعر بذلك.

يومها ارتديت ملابسي للخروج مع أمي، بحثت عن ملابس وحلي وحدثتني عن أشياء كثيرة وأنا اكتفي بهز رأسي، لم يستوقفها برودي في الاندماج معها عن البحث وكأنها لا تود أن تدخل في عراك كلامي معها.

لكني كنت أودّ أن تنتفض كي أصرخ وأتحدث عن أشياء قتلها الصمت في داخلي..

هي ليس لديها أمر أهم من أن تزوجني ...

يومها لم أعلم كيف مضى الوقت..

الوقت خدعة سحب مني جميع لحظاتي الفرح وترك لي عقارب تلدغ كبريائي وقوتي حتى ضعفي كان له نصيب من السم..

يبدأ الاستسلام عندما نكون مرغمين على واقع لانحبه لانحب النظر في صوره والتدقيق في الحواشي التي تتصدر أمام سطوره ..

وصلنا إلى البيت ودخلت إلى غرفتي دون أن أحدث أحد، تقوقعت حول نفسي وكأن الصدمة تشد وزري حتى أتمزق.

وقع نظري على حقيبة سفر موضوعة أمام غرفتي، فناديت أمي لأعلم

- لمن الحقيبة؟

سألتها عنها فقالت لي:

- نعم أن زوجك قد أحضرها لتضعي فيها جميع أشيائك ليقوم بنقلها إلى بيتك غداً.

تدريجيا أدركتُ أني مسافرة من الصمت والضعف والشرقية التي خلقت في روحي الهشاشة إلى عالم مبهم يحرق مراحل كنت أودّ ألا أهجرها .. ربما هي التي قررت أن تهجرني وليس هناك شيء يهيئُني للخروج من هذه القصة أو التنفس خارج أبطالها.

اقتربت من أمي دون أن أترك مسافة كبيرة بيننا ونظرت إليها بشدة محاولة أن أدع النظرات تجعلها تشفق على الحالة التي وصلت إليها ، قلت لها بصوت خافت خشية أن يسمع أبي:

أرجوكِ يا أمي أوقفي الأحداث .. فأنا لا أُريد أن أتزوج.. لا أُريد أن أحيا في العتمة والمستقبل المجهول!!

إنني بحاجة إلى الكتب المدرسية أكثر، أُريد أن أشبع رغبتي من الأقلام والدفاتر والكراسات ..

هذه الطاولة والكرسي لم أشبع بعد منهما، وأحلامي لاتزال طفلة بحاجة إلى الحياة .. قالت:

-كفى كفى. ألم تسأمي من هذا الحديث؟، نحن نعلم ماذا نفعل وهذا أنسب لكِ. غدا هو زفافك ولازلتِ تحدثيني بهذا الكلام الذي لاينفع في وقت تحدد فيه كل شيء، وضعت النقاط على الحروف ولن يحصل ما تودينه. حتى أنا، ماذا تظني بي فاعلة أن خرجت الآن وقلت لهم لا تريد الزواج؟

أتظنين أن والدك سوف يوافق؟ ومنذ متى أستطيع الوقوف أمامه والتجرؤ على قول مثل هذا؟

أتعلمين حينها ماذا سيفعل؟

ربما سيقتلنا كلانا، فالأفضل لكِ أن تغلقي فمكِ وتبدأي في ترتيب حاجياتك ووضعها في الحقيبة.

هذا سيكون أفضل من محاولاتك الفاشلة بفعل شيء لن يجلب لك سوى المتاعب.

خرجت والصمت يسفك دم القضية فوق شفاهي وحواسي كلها مشوهة حتى الأشياء أتذوقها دون طعم ..

كانت بي رغبة أن أصرخ وأضيع في صرختي حتى أبتعد عن هذا العالم ولكن كل شيء أكبر مني ..

يأستُ من أن أفك نفسي من كل هذا التعقيد وهذه الخيبة..

أنا لم يكن يعنيني الزواج أكثر من أنني مجبرة على هذه الخطوة، لم أكن أحلم بالرجل.. أن أكتحل للرجل.. أن أضع الروج ليرى الفاقع على شفتيّ، لم أكن أحلم أن أرتدي الفستان الأبيض للرجل.. وماذا يعني هذا الفستان الأبيض وأنا أجر خلفه أذيال الخيبة والفشل؟؟

ولكن كل هذه التفاصيل ينسونها أمام هلوستهم بالتخلص من الأُنثى بتزويجها وهذا ثراء عظيم لهم.

لأن في ذلك راحة عجيبة تطرح الهموم خارج قلوبهم وترميها في قلوبنا البيضاء..

كانت أصابع يدي تتجمد أمام ترتيب الأشياء في الحقيبة، كنت أعاركها لنفعل ما لا نريد ..

كنت أسمع صوت الآه يخرج ويعود من أظافرها لأنها كانت تعشق احتضان الأقلام أكثر..

أطلقت حينها صرخة ألم بين أصابع يدي لتعلم أنني مرغمة أكثر منها ..

انطلقت بعدها لترتيب كل شيء في الحقيبة وعندما انتهيت ناديت أمي لأخبرها بذلك، حينها أخبرت والدي ليأتي "إياد" ويأخذها إلى مكان أقسى من جدران قلوبهم..

انتهى كل شيء هنا لم يعد لي سوى غرفة سأدفن فيها بقايا روحي وسرير ذبلت فيه الأحلام المخملية ونافذة لن يفتح ذراعيها وطاولة محطمه كسرتها كثرة الأوراق الفارغة

جلستُ على سريري وكأنني أودّعه لآخر مرة، وأستعيد بين أغطيته دموع جفت من صدود أمي وأبي وأخي، من البرود العاطفي الذي جعلني حبيست روحي وقتيلة الصمت المفروض علي وأسيرة القيود التي فُرضت عليَّ منذ أن ظهرت أنوثتي وكأني عيبٌ يجب أن يُخبئ ..

يجب أن أبقى الثوب المفصل على مقاسهم وإلا سوف أُمزق وأصلح للحرق بين أكوام الحطب في المواقد ..

كنت أظن لآخر لحظة أن المودة في أرواحهم ستشفق على الطفل المقتول بداخلي ..

كنت أظن أن أمي ستحتضني بكل ما فيها كي تجبر كسر قلبي وستفعل المحال كي تقنع أبي بإنهاء كل شيء ..

كنت أظنها الحبل الذي سينجيني من الهلاك، كنت أظن أشياء لا تحتمل الخذلان، لكن كل شيء تحت قدم الخديعة قد انتهى ..

الخديعة أن الأم الحنون في قلب أمي كانت غائبة بكل تفاصيلها عنها، وأن الأب الرؤوف في روح أبي كان مسجونًا في ثوب الرجولة وأنا ميتةٌ بينهما، أنا ضحية لهما .. نصف رأسي قسمه أبي وكل روحي تاهت بين خطوتهم التي لم تجتمع في محور واحد..

غططتُ في نومٍ عميقٍ بعد طول تفكير حاد جرح كل تفاصيلي وتركني أنزفُ وحدي وأحتضن الجرح بجرحي وكأني وُجدتُ لأضيع بين آلاف الكلمات، لأتوه بين الأحرف التي تجمدت بين الأسطر التي أغرقتُ كل من مر بها ..

أذكُر يومها أني استيقظتُ من نومي كأنني لست ذاك الشخص الذي نام قبل ساعات، كأن في روح شيء قد تبدل، وربما انتهى وحل محله شيء مبهم يصعب علي معرفة ماهيته بحكم حداثته إلا أني أستشعر وجوده كحد السيف ..

وعندما نهضت من سريري، كنت أشعر بثقل كبير يجعل قدرتي على التوازن ثقيلة ثقيلة جدا، عشتُ حينها لحظاتٍ أصعبَ من أن أوصفها ..

وكأن كل شيء فيَ هالك، يُصارع روحي وعقلي وكل تفكيري وعلي أنا الضعيف أن أحتمل كل ما يجري ..

مضيتُ إليهم لأشرب فنجان قهوتي للمرة الأخيرة بينهم، كانت أمي تنتظرني لأستيقظ كي نذهب إلى صالون التجميل ..

كنت أنظر إليها نظرة عتاب تذيب كل تفأصل الحياة بها لكنها لم تشعر، ذروة إحساسي لم يصل إليها وهذا أمرٌ قاهرٌ يجعل مني روحًا هشةً تكاد الحياة تفتك بها ..

لم أشرب قهوتي الأخيرة، فأمي يومها لم تعدّها فهي متعجلة بأمرها ولا وقت اليوم لشرب القهوة ..

اليوم وقت لشرب كل العصائر، فهي أكثر لباقة للفرح.. للفرح المنسوج في روحهم، وأنا وحدي سأشرب القهوة المرة فوق كآبتي، سأقاسمها وحدتي دون أن يذق أحد قطرة منها ..

فعلتُ ما يريدون.. ذهبت معها لأتجمل وأخفي عيوب الحزن العالق في وجهي وأكحل عيوني كي لايلمح أحد دموع القهر التي ترجع

القهقريَّ إلى مجاري الدمع، ولبستُ تاج العروس كي لايرون الهشيم تحت شعري، ولبستُ الفستان الأبيض فوق أثواب سوداء جررتها تحت جلدي، ومضيتُ معهم لأُتمم مراسم الزواج والمدافن في روحي توقظ القبور النائمة ..

رقصت كالمذبوح على المسرح وحضنت الورد بين أصابعي لتكون هدية لأصابعي المكلومة.

ضحكتُ لهم حتى لا يلمحوا صقيع الشفاه على ثغري ..

أقبلت عليهم وأنا في صدٍ عنهم وكأني أبحث بينهم عن مفر من حالتي من ضعفي وقلة الحيلة ..

وتصورت معهم ولا يجمعني بهم سوى جسدي، حتى أمي لأول مرة منذ أن عهدتها قد وضعت يدها فوق كتفي ..

لأول مرة شعرت بيدها تمر خلالي، شعرت بقشعريرةٍ كادت تنسيني توازني وتجعلني أصرخ كالطفلة بين يديها، تمنيتُ أن أستوقفها لحظة واحدة لأقول لها: لماذا الآن؟ لماذا لم تكن هذه اللمسة منذ زمن؟ لماذا أفقدتني الإحساس بها؟؟

لماذا لم تعلقيني بثوبك يا أمي؟ لماذا وضعتها في الوقت الخاطئ؟ ؟

ثمةُ أشياءٍ نتمناها بشدة، نلهثُ للوصول لها وعندما لا يبقى منا غير أنفاس، تصل كالزهور فوق موتنا وتتحقق بطريقةٍ أرقى، فلا نحن ننعم بها ولا هي تحيا بين أحضاننا ..

لم أكن أتمنى يومها أن تنتهي مراسم الزواج وأذهب معه، كنت أتمنى لو أن الوقت يمر ببطء لكن لا جدوى من صراعي، كل شيء انتهى بما لا أُريد ..

اليوم أنا في بيت جديد مع رجل غريب وناس غرباء لا أفقه عنهم سوى أنهم جيران ..

إنني اليوم أُعاقب على جريمة الأنوثة..... إنني أقدم للرجل والمرأةُ بداخلي تُسلب على فراش الزواج، والطفلة بداخلي متشردةٌ تبحثُ عن قلمٍ وورقةٍ لتُطفئ حرائق أُشعلت رغم عنها ..

لا أعلم كيف بدا الأمر صعب جدا هكذا؟!

دخلت معه إلى غرفتنا والخوف يعتصر تلافيف دماغي، ونظراتي في كل لحظة تهرب منه ..

لكنه قال لي: لماذا لا تنظرين إليَّ؟ ؟

ألا تودين ذلك؟

هل هناك شيء يخيفك؟؟

أنا من اليوم زوجك، عليكِ أن تكفي عن ذلك.
وقبل كل شيء هناك نقاطٌ مهمةٌ عليكِ اعتبارها:
أنا زوجك من هذه اللحظة وكلمتي مقدسة، ولا أحب أن أكررها.
والخروج من المنزل بأمري أو أمر من أمي، فأمي هي أغلى ما عندي بعد الله .
إن فعلتِ كل هذا سوف تكونين في عيوني، وإلا سيكون لي معك تصرف آخر ..
هذا درس مهم عليكِ أن تحفظيه كي لا تقعي في المشاكل ..

وأنا كالأسيرِ أتلقى الأوامر وإلا سوف ينتظرني عذاب سيكسر الأجنحةَ المتبقيةَ فوق ظهري ..

كان صمتي جواب لايليق بالموقف، وتضخمت مخاوفي، وصلت حدًا الجنون، كنتُ لا أطيق نفسي، كنت أشعر أني أشتهي أن أصرخ .. أمي أرجوك يا أمي أنقذيني ..!!!!
لكني هذه اللحظة مسلوبة القوة.. مسلوبة الحركة ..لاتقوى أن تمر بين سهام معروفة الهدف ..
لذلك لاجدوى من المحاولات الفاشلة في مثل هذه اللحظات ..

استسلمتُ له ولرجولته التي لم أكن أنتمي لها، ولست راضيةً عنها، كنتُ طفلة ضعيفة أمامه ..

لا أدري ما يجري ..ولست أدري ما الذي سيجري؟ !

لم يساعدني منذ أول لحظة لأستنجد به كي أشعر بالأمان، كنت أشعر كأنه صورةٌ لأبي، صورةٌ للظلمِ والاستعبادِ الرجولي على المرأة، لم أسمع منه حتى بعض كلمات تواسي الحزن بداخلي، بل كان أقسى من الحزن في صدري ..

أرضى الذكورةَ فيه وتركني أتخبط في المرأة المسفوكة بداخلي وغط في نوم عميق.. وأنا أتخبط في شباك القضاء الذي لم يكن عادلًا..

طارت كل أوراقي بعيدًا عن رأسي، وانقبضت روحي بكف الظلام الدامي ..

طال هذا ذبذبات النهار ولكن الظلام بقي يحيك سواده رغم الفجر الذي بزغ ولم يبزغ ..

طوال الليل وأنا أستهجن ما جرى وأتنهد بقوةٍ، وأُفتش عن ذاتي الحرة المسجونة..

استيقظ "إياد" ونظر إليَّ بدهشةٍ وقال لي:

لمَ عيونك متورمة؟

ألم تنامي ليلة أمس؟

قلت له: بلى .. ولكن قليلا.

قال لي ولمَ؟ ما الذي يشغلك حتى لا تنامي؟

-لا شيء .. ربما لأنه أول يوم في هذا المكان.

رمقني بنظرة استهزاء وخرج من الغرفة وهو يهز رأسه

ثم سمعت صوته وهو يقول: تعالي لنتناول الفطور مع أمي.

خرجت لأجلسَ معهم في ساحة بيتهم الواسعة لنتاول الفطور..

قالت لي أمه منال: لاتخجلي، فأنتِ من اليوم واحدةٌ من أهل هذا البيت، وتقومين بما نقوم بفعله كل يوم، إني أحب أن أستيقظ باكرا وأقوم بأعمال المنزل جميعها، وبعدها أطهو لكي يكون الطعام جاهزًا قبل وصول "إياد" من العمل.

ثم قال "إياد":

-لا من اليوم وصاعدًا هذه الأعمال ستقوم بها "لمار"، يكفيكِ أنتِ ما فعلته لأجلي.

آن الاوان أن تأخذي قسطًا من الراحة والاهتمام بصحتك أكثر.

هزت أمه رأسها بفخر ونظرت إليَّ وكأنها تقول لي أسمعتِ ما قاله زوجك؟

عدتُ ضعيفةً أكثر من ذي قبل، هشةٌ كما كنت، شعرت كأني خادمة في جسد زوجة، شعرت بالذل والقهر ..

لم يفهموا نظراتي وصمتي سوى الرضوخ، لم يفهموا سبب سكوتي المتراكم، كبرت الفجوة بيني وبينه بعد هذا الكلام، كنتُ أشعر أنه أتى بي لأكون كما يريدون وليس كما أُريد..

كنت أشعر أن لا صوت لي ينهي هذه المهزلة، لم أقدر على المواجهة وكيف أنا الصامتةُ أواجه؟

تناولتُ بضع لقيمات كي أبلع الغصة في حنجرتي وأغرقها بشربةِ شايٍ ساخن.

ظلال الطريق في كل مرة تزداد سوادًا وتحيطني بالعقد والألم أكثر حتى تكاد يدي لا تفلت من القيود..

أظن أني انتقلت من ظلم أمي وأبي إلى ظلم زوجي وأمه، ولا اختلاف بينهم.

الصورة واحدة.. قواعد صارمة وعقاب عند تجاوزها.

حتى حاجتي للحب والدفء والحنان مازلتُ غير مشبعة، مازلتُ متعطشةً ليدٍ تلمسُ بعضها .. مازلتُ أغصُّ لها بكل لحظة تمر ولا من مستنشق رحيقها التالف.

لم أكن أعلم أن هذا الفقد سوف يكبر ويتضخم حتى يكاد ينفجر في وجهي، ليتني لم أعتد على الصمت ليتني كنت قادرة على أن أصرخ بوجههم جميعا وأقول لهم لا.

كي أتحدى نتائج تلك الكلمة، ليتني كنت شجاعة قوية القلب لما وصلت إلى هنا ..

ولكن كيف؟ أن كنت قد تربيت منذ طفولتي على الخضوع والخنوع؟ على عدم تجاوز الأوامر على أن الأُنثى مجرد ضلع قاصر تكسر دون الرجل، والرجل وحده قادر على كسرها ووصلها بمكان ربما لم يكن ضلع لها كان أكثر شدةً وحطامًا.

لكن من يقول لأبي ذلك؟ من يجعله مدركًا لتلك الحقيقة المرة؟

من يجعل شعوره يرى ما اقترفته يداه من خطييئة؟

من يشعره بالذنب تجاهي؟

من يوقظ أمي على حالتي المتبعثرة في أرجاء نفسي؟؟

***

شعرتُ بالخذلان من عالمين متشابهين، أليس قاس جدا أن يكون العالمين لاتناقض بينهم كلاهما موجع كلاهما قتل رغبة الحياة بداخلي كلاهما كانا يوغلاني بالصمت أكثر كنت أشتهي الحديث والمناقشة ما الذي يجعل مني إنسانًا صامتًا وأنا أستطيع الكلام؟

ولماذا كل شيء كان يساعدني على التوغل أكثر في الصمت والخضوع؟ هل كنتُ عدوةً لهم حتى أواجه كل هذه السهام الجارحة التي جعلت مني إنسانةً ضعيفةً مكبلة بالخوف لا تقوى على قول لا عندما تشعر بحاجتها لنطقها؟

ماتت الأُنثى بداخلي وتحولت بسرعة عاصفة إلى امرأةٍ لا تفقه من المرأة سوى حروفها، وتهمشت مراحلَ في حياتي على قارعة المدن المهجورة حيث لا حراك يحيها وبتُ أنا لست أنا ..

تلك التي كانت بداخلي أصبحت تودعني كل يوم لتصبح المسافات بيننا أكبر، بحثت كثيرا عن خيط أمل يعيد أناي لي لكن كل الخيوط كانت تلف ذراعيها حولي لتقتلني

عدت هنا من حيث أنا ربة منزل مجبرة على أن أقوم بكل أعمال المنزل دون أن أعترض، دون أن يحق لي يوم أستريح فيه من عبء هذا الشقاء.

مرت الأيام وأنا أعارك هذا الشقاء وحدي وكان ذلك عسيرا علي، كانت أمه تحاول استفزازي كي أنفجر فيها، كانت توقظني منذ الصباح لأُعدَّ قهوتها وتمنعني من الخروج من المنزل دونها أو دون موافقتها. في كل مرة كنت أخبر فيها "إياد" عن ذلك يصرخ في وجهي قائلا:

أفعلي كما تقول أمي، وإياكِ وعصيانها، فإن عصيتها فكأنك عصيتني. تعلمين جيدا إذا غضبتُ ماذا يحدث.
احفظي ما ء وجهك ولاتختلقي المشاكل.

"إياد" كان قاسيا جدًا، لم ينتشلني من سكوتي بل كان مثلهم يفرض كل شيء ..
في كل حوار يجمعنا أشعر بروح أبي المتسلطة بيننا تشق عنفوان الحب وتسقط فوق قلبي حجرًا، ويومًا بعد يوم تكثر الأحجار في قلبي ويبات شعوري لهم محاط بالقسوة.
هو سبب ما أنا عليه الآن ، هو سبب كل شيء بشع في حياتي لست ممتنة له على هذا شعور بكل تأكيد، ولا أملك في قلبي له سوى اللوم وآلاف الأسئلة التي تحولت إلى فتات أمام الصمت المفتعل.
هذه الدوامة تنهال علي في كل ليلة، وبالأخصِّ عندما يحين وقت النوم، ولكن هنا لا أستيطع أن أصرخ كي لا يسمع "إياد" تنهيدات وجعي السخيف بالنسبة له ..
أدفن رأسي بالوسادة وأنفخ فيها وجعي حتى يغلبني النعاس وأغيب عن عالم أودّ ألا أستيقظ منه.

نعم وصلت إلى حالة يأسٍ وأنا في الثامنة عشر من عمري في زهوة شبابي في بداية ربيعي.. في أول رحيقي..

وصلتُ إلى العجوز البعيدة بداخلي أكثر من أن أصل إلى تلك الفتاة الجميلة المتفتحة التي لازالت خيوط الشمس في بداية إشراقها في أول نضجها في أول ملامحها في أول رؤاها.

أشفقتُ عليها بشدة لأن العجوز استطاعت أن تسبق الشابة فيه، فمن المحزن أن تتعدى إحدى المراحل الأخيرة على مرحلة البداية المشرقة، كمن يطفئ ضوء الشمعة في بداية ومضاتها، كمن يخنق الورود في بداية تفتحه.

كانت الأيام تمر رغما عني وكانت تتلاشى كأحلامي كلحظات عمري الملتهبة، والصمت والضعف والذل يتبعون طريقي ويُطعمونني فتات خبزهم البائت، وأنا ضائعة بيني وبين كل شيء حولي.. في حالة صدمة.. أكاد لا أصدق كل الذي جرى، لم أتوقع أن أصل إلى هنا إلا أنني وصلت. لم أتوقع أن أكون في المكان الذي لم أُرده لكني كنت.

تمنيت للحظةٍ أن أتخلص من هذا الشعور القاتل لكن هذا شيء محال أمام حقيقية واقعية أُبصرها بكلتا عينيّ.

***

لم تزرني أمي كثيرا على الرغم من حاجتي القاتلة لها، لم تحضُر في التفاصيل التي وددت أن تمنحني فيها شيئًا من عاطفتها، شيئًا من إحساسها لكي ترى فيه الحزن والشجن المتعلقان بروحي..

آهٍ كم تمنيت لحظة أن أبكي في جيوب قلبها.. أن تحبسني بكلتا يديها حتى تعتصر كل آهاتي..

أذكُر مرة أنني جلست معها لأقول لها ما الذي يجري هنا، وكيف يعاملني "إياد" وأمه بل كيف جائوا بي لكي أُصبح خادمةً لهم، لكنها قاطعتني دون أن أتمم حديثي..

قالت لي :كفى، لا تكملي الحديث، إنك لا تعملين في بيت غريب، إنه بيت زوجك وهذا كافٍ لأن تتحملي.

قلت لها: لكن ليس هذا كل ما في الأمر يا أمي؟

هناك تفاصيل أحتاجها من "إياد".. ربما اهتمام .. ربما أودّ أن أخرج معه نقضي يوما خارج المنزل، بعيدًا عن تفاصيل الحياة المملة

قالت لي بكل برود ودون أن تشعر بأنين معاناتي:

هو لديه عمل شاق ويجب أن تراعي هذا الشيء. و ربما هو لا يحب الخروج من المنزل وعليك أن تعتادي على ذلك.

-لماذا يأمي يجب علي هذا؟ لماذا يجب أن أكون دوما التي تتحمل عبء كل شيء؟

صدقيني .. لقد سئمت كل شيء، أتوسل إليكِ أن تشعري بي..
أخرجيني من هذا الظلام الذي أنا فيه ..قفي بجانبي لو لمرةٍ واحدة..
-وما الذي تريدين مني أن أفعله؟
-تحدثي مع أبي وقولي له أني أُريد الطلاق.
بركان هائج من بين أصابع يد أمي حط على وجهي، لم أسقط حينها على الأرض، بل الأرض هي التي سقطت علي.
ثم خرجت من أمامي دون أن تنطق بكلمة واحدة.
خذلتني حينها أمي.. خذلت الطفلة بداخلي..
لا أعلم كيف تشكلت سلاسل الخذلان بيننا، إلا أنها نجحت بذلك.
لكن أيُعقل أني وصلت إلى مرحلة أتوسل فيها إلى حنانها، رغم أني اعتدت عليها هكذا لكن هذه المرحلة أحتاج إلى حضن يحتويني، أحتاج إلى سائل.. هل من حزن تفكر به فأمحوه لك؟...لا أحد يجيب أو يشعر بالأذى الذي يبيت في قلبي..
مرت الليالي والحال واحد لم يتغير والصمت لازال يحيك لي من خيوطه أثوابي وأنا مع كل خيط أفقد كل سبلي للكلام..
أذكُر كيف تحملت ما لم تتحمله الجبال الراسخة، أذكُر كيف تحولت إلى فجوة عميقة تتسع للهموم والجراح النازفة..

كنت أفكر كثيرا لمَ أنا؟ لمَ كل هذا الجرح ينزف بداخلي؟ لمَ لمْ أرَ البسمة على وجهي؟

لكن الصمت لم يكن أمامهم فحسب بل تعدى علي حتى أصبحت صامتة تجاه نفسي..

هُزمت حتى من نفسي، وهذه قمة المهزلة التي لم أصلها من تلقاء نفسي.. هم من عبَّدوا الطريق لي لأكون هكذا ..

استمتعوا عندما لاحظوا ملامح الحزن والطاعة على وجهي ..

أفئدتهم حصلت على السكون تجاهي، دون أن يكترثوا للأُنثى التي تموت بداخلي ..

أنا لم أرغب أن أكون هذه المرأة التي لا تشبهني، لكنني وجدت نفسي عالقةً تلقائياً في روحها، استطاعت أن تستحوذ علي بأكملي..

أدركتُ أن لا مفر مما أنا فيه، لا هروب من النيران الملتهبة حولي ..

علي أن أواجه هذا بكل ما أملك من ضعف وهذه قمة القوة.

***

بعد مضي بضعة أشهر على زواجي حملتُ من "إياد"، وكان اليوم الذي علمتُ به أني حامل صادمٌ جدا، تمنيتُ حينها أنني لم أعلم..

هربتُ كثيرا من هذه الفكرة إلا أنها استطاعت اللحاق بي والمضي خلفي حد الالتصاق.

إنني لم أكن أخاف من فكرة الحمل، بل أكثر ما كان يقلقني هي الأمومة المتكررة، الأمومة المهمشة التي أخاف بغير قصد أن أعامل فيها من بداخل أحشائي بنفس تلك الطريقة.

كنت في تلك الأثناء وأنا أعارك الحياة في نفسي، أعارك رغبة الأمومة وشعوري بالذنب لأني طفلة، وكيف لي أن أمنح طفلة شعور الحب، بل كنت أُعارك أمي التي كانت أبعد ما يمكن عني..

فأنا لم أذكُر ملامح يديها وهي تخالط روحي، لم ترسم ضحكتها على شفاه ذاكرتي، كلُ ما هو عالق هنا كان قاسٍ جدا ..

لقد زرعت البرود والبرد في جفاف قلبي..

أودّ لو أن يصبح العالم أبكم كي أستطيع أن أخرج صرختي في هذه اللحظة ..

وفي هذه اللحظة دخل زوجي ودون أي كلام مفعم بالحب يسألني ما الذي قد أَخَّرَ العشاء إلى هذا الوقت؟

وهل تتركين أمي تفعله؟

قلت له: لا.. ولكني مرهقة

-مرهقة! وممَ؟ كل عملك ضمن حدود المنزل، فما الذي يجعلك تتعبين؟

قلت له بخيبة مفرطة: إنني حامل

خرج من الغرفة مسرعًا وبدأ يصرخ:

" أمي.. أمي.. تعالِ أُريد أن أُخبرك أجمل ما تودي سماعه ..

إن زوجتي حامل!

وبدأت تطلق الزغاريد واحتضنها دوناً عني وبدأ هو وأمه يتحدثان عن الطفل وعن اسمه، بل إنهما أقرّا بأنه صبي.

كانت لحظة قاسية.. لو أنه احتضنني أو قال لي شيء من قبيل الحب.. لو أنه كان يحدق بعشق في عينيّ دون كلام كنت سأسمع كل ما يجوب في ذاكرته ..

بعد هذا وددتُ أن أغيب عن هذا الواقع، تركتُ كل شيء واستلقيت على سريري كي أغيب عن صدى هذا الواقع البائس، لكنني فعليا لم أغِب، كانت هناك في رأسي معركه تقلب كف الحروب.

تدق ساعة الموت أمام روحي، كنت أصولُ وأجولُ حتى أسقط في شباك الغفوة، وأنام ليطوي الليل ورقة ويسلمني ورقة جديدة لكن كل ما كُتب على تلك الأوراق يُعاد.

ولكن يومها كان يجوب في ذهني خاطر هو أني لماذا أستسلم وأنا مهزومة أمام هذا الوضع؟ لمَ لا استسلم وأنا منتصرة؟

فالإنسان يستطيع في بعض الأحيان أن يهزم الخيبة ببرودة رده؛ كأن يبتسم أمام الهزيمة..

لذلك قررت أن أُحدثك أنت الروح التي سكنتِ جسدي عن كل ما يجوب في خاطري، عن تفاصيل حياتي، عن الظلم الذي يُجار علي في كل يوم، عن الزوج الذي كان يبخل علي بالكلمة، دون أن يحاول أن يخفف عبء اللحظات في قلبي ..

ليس هذا فحسب، بل شعرتُ أن هذا الشيء سيسعدني ويخفف الحزن العالق بداخلي ..

ومرت الليالي والشهور وأنا أحدثك. دون أن أعلم أنكِ أُنثى، دون أن يهمني جنسك، كل ما كان يعنيني أنني شعرت بالعشق فيكِ.. شعرت أن الحب بيننا أكبر من روح الحياة ..

في كل لحظة كانت تمر كنت أستمدُ من روحك حياة..

كنت أحتضنك وأنتِ لازلتِ في أحشائي، وأنظر إلى ملامحك التي لم أراها بعد، بل كنت أبصرها في عشقي لك..

كنت أشعر بالحزن على اليوم الذي يمر دون أن أقول لك ولو كلمة، ذاك التواصل الروحي جعلني أشد تعلقا بك وإيمانا بالود الذي بيننا .. تتزاحم الكلمات كلما كنا وحدنا لشدة شوقها أن تصب في روحك،

كانت تغزوني رغبة في أن أرسم ملامحك قبل أن تأتي وكان لدي إحساس مفرط أنك فتاة رغم أني سمعتهم كثيرا يقولون لي أنه غلام وأن هذا مؤكد وخاصة أن الطبيب قال ذلك.
لكن الشعور في روحي كان أقوى من افتراضاتهم وأنا مؤمنة بالإحساس أكثر من أي شيء آخر.

وجاءت اللحظة التي حان قدومك فيها، حملتُكِ بين ذراعيّ ونظراتي تلتصق بكل جزءٍ فيكِ..
حضنتُكِ كالمشتاقِ لغائبٍ، لأنها لم تكن الأولى لكنها كانت الأجمل.
رائحة الحياة تفتحت بين ذراعيّ ولأول مرة ابتسم من قلبي شعور هائل يصعب وصفه وتصعب على الكلمات جمع حباته المأخوذة من النور .. لا بل أنتِ النور الذي أشفق على عتمتي..
حين كنت أنظر اليك في أول اللحظات ابتسمتِ، لمحتُ ضحكتكِ التي لازالت عالقة في مخيلتي.. شعرت حينها بصدق ما كان بيننا..
لشدة فرحي بكِ استنشقتكِ كأني أستنشقُ الحياة..
كأني لأول مرة أتنفس ..
حينها نظرت إلى "إياد" الذي كان يجلس بالقرب مني عاقد الحاجبين وصرخت بلهفة تعال وانظر ما أجملها.. ما أروعها.. إنها كالملائكة

لم يُعرْ كلامي أيَّ اهتمام، نظر إليكِ بطرف عينه ثم قال لي:

-لازالت قطعة لحم.. من أين رأيتها ملاك؟

ثم كيف قال الطبيب إنها صبي وهي فتاة؟

قلت له أنكِ هدية من الله، وليس جديرٌ أن نعترض على هذه الهدية.

قال بحقدٍ عارم:

كفاكِ كلامًا فارغًا، من قال أني معترض؟ لكن كان شعور سعيد لو ولدتِ الصبي الذي تحدثت عنه مع أمي. سوف تشعر بالحزن عندما تعلم أن الصبي الذي كنا ننتظره لم يكن سوى فتاة !!

لم يكن لي رغبة في أن أجادله، فأنا أعلم أن النقاش معه عقيم..

صمتُّ، وعدتُ أدراجي إليكِ، عدتُ إلى طفلتي التي انتظرتها بشوق وتمنيت لمس كل شيء فيها، وكلمتك بعيوني عن خطط المستقبل معا وكيف سأمنحك كلي.. سأمنحك أذني وعيوني وروحي.. سوف لن أسمح لشيء أن يعيق التواصل بيننا

مسكتُ يدك الصغيرة وعاهدتك أمام كل الظروف الصعبة التي حُفرت برأسي أن لن أكف عن حبك و الإنصات لكل ما تودينه وقلت أني لن أخون ما كان بيننا.

***

عندما عدت إلى المنزل لم تكن الفرحة على وجوههم، لم يكونوا تعساء لكنهم لم يشعروا بالفرح، لكني كنت على عكسهم كنت كمن ملك الكون بأسره كنت أشعر أني قد خُلقت يوم جئتِ للحياة، كانت جدتك تدخل وتنظر بطرف عينها إلينا دون أن تلمسك بحجة أنكِ لازلت صغيرة، وهي التي كانت تقول ل"إياد" يوم يخلق ولدك سوف أكون أول من يحمله.

حتى "إياد" كان جافًا جدًا معك، لدرجة أنه طوال الوقت يتحدث عن الخيبة ويتساءل كيف لطبيب أن يخطئ في معرفة جنس طفل؟! شغله هذا الموضوع أكثر من أن تشغله اللحظات الأولى لكِ، دون أن يشعر بحاجة لاحتضانك.. لملامسة ملامحك البريئة..

حتى أنهم لم يفكروا في اختيار اسم لك ..

فسميتك "نور"، لأنك النور الذي بدأ يفتح نوافذ الغرف المظلمة ..

أدركت فعلاً مرض قلوبهم وصعوبة التعامل معهم، كم هم أنانيون!! يحرمون أرواحًا بحاجة إلى شعورهم لمجرد خيبة، لا أستطيع أن أسميها خيبة إلا في قاموس حياتهم الغريب.

فهذا كله بمشيئة الله، فلماذا لا نرضى ونستمد السعادة من هذا الشيء؟؟

هذا الرضى الذي لا يحتاج لشيء سوى تقبل الأشياء كما جاء بها الله.

مضى على قدومك أربع أشهر وكل يوم كنت أستمد الحب الذي كان ينقصني بك، كنت أفر إليكِ لأبوح بالآلام التي كابدتني، بالأنانية التي امتلكت قلوبهم حتى جعلتهم لا يأبهون لتعبي، لسهري طوال الليل معك وفي جنح الصباح أستيقظُ لمتطلباتهم التي لا تنتهي، لـ"إياد" الذي كان زوجي الغريب، الذي لايتحدث إلا بمنطق الرجولة التي تفرض عليه أن يكون صارمًا معي، كي لا أخرج عن السيطرة.

وأي سيطرة هذه التي تعطيه الحق بأن يكون بهذا البرود والجفاء؟ ولمَ؟ ما ذنب المرأة بداخلي تموت قبل أن تخلق؟

ما ذنبي بأن أتحول من فتاة إلى أم والمرأةُ بداخلي قد سُلبت قبل أن تخلق؟؟؟

تعذبت كثيرا بينهم حتى شعرت أن حياتي بينهم رسوم استطاعوا أن يرسموها بدقةٍ حتى تحولت إلى لوحات حزينة لرسام لم يُفكر بالخطوط المذبوحة على الورق، كان كل همه هو صورة وغير ذلك لا يأبه به.

نعم قبل هذا الوقت قلت كل هذا لك، روحك سمعتني كثيرا وجلدك شهد قطرات الدمع التي ذُرفت في كل يوم كنت أبكي فيه بأحضانك.

كنتُ أغادر الوجود معهم فيكِ أنتِ، كنتِ الباب الأول الذي فتح لي الحياة، بقيتُ أستمد القوة منك لأبثّ في قلبي روح الحياة لأنسى العبء الثقيل على كاهلي ..

تحملت برودة قلوبهم تجاهي ولم يكن يعنيني تعبي عندما أنظر في عينيكِ ..

مضى على وجودك فيّ سنتين من الحب والعشق التي لم أشهدها قط.. لكنهم لم يتركوني أتلذذ بهذه اللحظات، لابد لهم أن يقهرو الضعف بداخلي ..أ

نهكوني بأسئلتهم القاتلة.. ألم تحملي بعد مضي خمس سنوات على وضعك؟ خمس سنوات وإلى الآن لم تحملي؟؟ نا نريد ولد لابننا الوحيد!!

وما الذي يستطيع أن يفعله المرء إن كان هذا بيد الله وحده؟

يريدون أن يكرروا شريط ألمي بالرمادي !!

لم تكتفِ جدتك بهذا، بل أرغمتني أن أذهب إلى الطبيب كي تعلم سبب تأخر الحمل، وكنت قد ذهبت معها مرار إلى أطباء كثر ولكن دوما يقولون ليس هناك أية عوائق.

كان لابد أن أكون وجهًا آخر للصبر من أجلك أنت، أتالم بصمت يكاد صوته يصل إلى الأسماك في أعماق البحار، ربما الأسماك حينها ستشفق علي ..

اليوم أيضًا يحملوني سبب تأخر الحمل ..

اليوم أيضًا يجعلوا مني مذنبة من لاشيء ..

ماذا بوسعي أن أفعل سوى الصمود بوجههم لأكون بين ذراعيكِ، لأُمدَّكِ بالحب وألمسَّ روحك التى هي أكثر ما أحتاج لأضع رأسي على نفس الوسادة التي تضعين رأسك عليها وتكون عيناكِ آخر شيء يطلُّ على مدن عيوني ..

ليبقى النفس الذي يصعد بداخلي يتنفسك أنت وحدك ..

لأستيقظ في الصباح في حضرتك ..

وأشرب القهوة المرة التي تعطيني الحلاوة كلما رشفتُ رشفةً وأنا أنظر إلى القمر المرسوم بوجهك ..

ثم ماذا؟ لا أُريد شيئًا سوى أن أبُثَّ الحب في روحك.. أن أُعطيك

الحياة التي سُلبت مني، ألا أسمح لهم أن يطبعوا ما كتبوه بداخلي فوق دفاترك البريئة ..

أريد أن أثبت أن فاقد الشيء يعطيه، لأنه الشخص الوحيد الذي علم بمرارة الشيء الذي فقده

***

أصبحتِ في الخامسة من عمركِ ..

ولكن تلك السنوات الخمس كانت تمضي لتفسح المكان لأشياءٍ لم أتخيل أن تحدث معي، ففي إحدى الليالي المنكوبة منذ صباحها شعرتُ بثقلٍ كبيرٍ في رأسي وتعب في أسفل معدتي ولم أستطع حينها الخروج من غرفتي وفعل أي شيء فإذ بها جدتك تدخل كالحاكم لتحاسبني عن سبب تأخري لهذا الوقت.

قلت لها إنني أشعر بتعب شديد.

قالت لي بصوت كاد يتحول إلى يدٍ لتضربني:

هيا انهضي، الذي يراكِ هكذا يقول لديها عشرة أطفال وقد تعبت من تربيتهم، ألا يكفي أننا إلى الآن نحتملك.

لم أدرِ ما الذي أقوله لها وهي تتحدث بهذه الطريقة الفظّة..

بقيت صامتة ونهضت مرغمة عني أحمل جسدي ولا قوة لي على ذلك، وما أن وصلت إلى باب الغرفة حتى سقطت ولم أعد أشعر بنفسي إلا وأنا في المستشفى.

فتحت عينيّ، نظرتُ إلى الأشياء مستغربة بين الصحو واللاصحو..

قلتُ أين أنا ؟

قالت الممرضة: لاتخافي.. أنتِ بأمان، لكن صحتك مُنهكةٌ قليلاً

-ومن جاء بي إلى هنا؟

قالت لي: إنها عمتك.

وبعد دقائق دخلت جدتك دون أن تنطق بشيء.

سألتُها ماذا قال الطبيب ؟

قالت لا أدري، لقد طلب لك بعض الفحوص وبعدها يقرر ما الداء الذي فيكِ، ولاتتأملي أن يكون دوارك له علاقة بالحمل.

بماذا تفكر؟ لايشغل بالها سوى الحمل، هي لايهمها الذي أنا فيه حتى لم تقل لي كلمة طيبة تواسني في هذا الموقف !!

دخل الطبيب إلى غرفتي وقال لي سوف تنامين اليوم هنا فانت بحاجةٍ إلى راحة، ونريد أن نقوم ببعض الفحوص التي لابد منها كي نعلم سبب هذا الوجع.

بعد أن انتهى من حديثه قالت لي جدتك: إذن لاداعي لوجودي هنا، سوف أعود إلى المنزل وأُخبر"إياد" بذلك.

مسكتُ يدها قبل أن تخرج وقلت لها أوصيكِ ببنتي.

أفلتت يدها ومضت دون أن تتحدث بكلمة.

بكيتُ كثيرا ليلتها، تلك الليلة الأولى التي أبيتُ فيها دونك، شعرتُ بشقاءِ اللحظات..

تمنيتُ أن أطيرَ إليكِ .. أن أبلل ثيابك بقطرات المطر التي تقتل فؤادي ..

كنتُ أشعر أن هذا اليوم هو رسالةٌ لي لأعتاد على الفراق ..

فهناك رسائل تصلنا بطريقة غير مباشرة لتخبرنا عن أشياء لا نستطيع أن نُدركها في الوقت الذي وصلتْ فيه، وإنما ندركها ونحن على مسافةٍ بعيدة منها.

لم أنَمْ يومها، كان الخوف والقلق يسامراني، كنت أتقلب بينهم، كنت أحترق بجمراتهم .. وأنطوي في زواياهم.

جاء الطبيب في الصباح وقال لي هل يوجد أحد من أهلك معك؟

قلت له: لا ربما الوقت باكر على قدومهم، ولكن هل هناك شيء ؟؟

قال بتردد: لا

قلت حينها: أرجوك أخبرني.. لاتخبئ علي شيئًا، وعلى كل حال أنا معتادة على الهموم، ما سوف تقوله لن يقتلني أكثر.

بانت الدهشة على وجهه من وقع كلماتي، لكني بقيتُ مُصرة على معرفة ما الذي يجري، فقال لي:

- في الواقع يوجد في رحمك أورام ليفية ولا بد من استئصالها مع الرحم، لأني لو قمت فقط باستئصالها مع بقاء الرحم فسوف تعود ثانية وتنتشر بشكل أوسع.

كانت الكلمات تتبعثر في مسامعي كالرصاص ..

قال: لا تخافي وكوني قوية، لا أستطيع أن أقول لك غير هذا.

ومن الضروري أن تجري العملية في أقرب وقت.

ماذا لو غبتُ بعيدًا عن هذا العالم ؟

ما الذي يجري؟ أحقًا ما قال أم أنني في حلم؟؟!!

جاء زوجي وأمه معا واقتربا مني ليعلما ما الذي جرى.

خفت كثيرا حينها، لم أعلم ما الذي سأقوله لهما.

أغمضتُ عينيّ وقلتُ الحقيقة، فلا مفرَّ من ذلك.

كنتُ أنتظر من "إياد" أن يحضنني ليُخفف من شدة الموقف، انتظرته أن يواسيني بقصاصات من الكلام، لكنه قال لي:

- هذا يعني أنك لن تُنجبين بعد الآن!!

وأنا لا أُريد أن يكون لدي سوى فتاة واحدة، بل أُريد أن يكونوا أطفالًا.

كدتُ أضربُ رأسي بعرض الحائط ..

أنا أتضور من الألم وهو يفكر بنفسه، أصبحتُ في حالة مرضية يُرثى لها، أنا بحاجة إلى يدٍ تُخفف المرض عني، إلى سيفٍ يبترُ بَتّي قبل أن يصل إلى ظهري فيقصمه.

عشت حالة من الذهول والصدمة، دخلتُ في متاهات لم أكن يوما أتمنى دخولها، لم أحتج إلى دواء يخفف شدة االوجع الذي ينتابني، لم أحتج إلى عقاقير تُشفي داخلي من مرضي..

لم أحتج أن أجلس مفعمة بالصحة ..

بل إن أكثر ما احتجته هو شيئًا من الإحساس منهم، إلى حبل ود يُنقذني مما أعانيه ..

أحتاج لأن أتنفس الود، تمنيتُ منهم أن يرحموا هذا القلب الذي بات مقتولا ببرودة إحساسهم ..

مرة أخرى رأيتُ نفسي وحيدة في مواجهة الصعاب، متحملة صوت الظلم يصرخ في ضوضائهم ..

شعرت أنني أُريد أن أحضنك بين ذراعي، أُريد أن أذيب الحزن بخرزات عينيك ..

طلبتُ من "إياد" الواقف أمامي المندهش مما يجري، الخائف على أن يبقى عليكِ وحدك أن يجلبك إليَّ كي أراكِ و أضم الحياة للحظات.

نظر إليَّ وهو غاضب وقال: تُريدين الآن أن تَريها؟ عندما تنتهي من العملية تذهبين وتريها.

مسكت يده وقلت له: أرجوك لاتكن قاسياً إلى هذا الحد واجلبها لي .. لقد اشتقتُ إليها كثيراً.

تأفف قبل أن يخرج وقال: سوف أذهب لأجلبها لك.

آهٍ كم بكيت عندما دخلتِ إلى غرفتي وركضتِ إليَّ وأنت تناديني أمي أمي ...

فتحتُ ذراعيّ أبوابِ قلبي ونوافذ الحياة لأضمك بكل ما فيها، رحتُ أبكي في أحضانك وأبثُّ الآه، كالنار كانت تخرج وأنت تُحدقين فيَ بحزن دون أن تفهمي شيئًا من الهالات الباهتة التي انتشرت بوجهي، لكنكِ رفعتِ يديكِ ومسحتِ بها دموعي

تعرفين ماذا يعني أنكِ فعلت هذا في هذه اللحظة؟ كأنكِ أعطيتني حبلًا لأبقى متمسكةً بالحياة ..

سألتِني حينها متى ستعودين إلى البيت فقد اشتقتُ إليكِ كثيرا

قلتُ لك :

وأنا يا نوري الباقي .. لاتخافي سوف أعود قريبًا..

ولاتقلقي فأنا بخير ..

نِمتِ يومها على صدري وبعدها أخذك والدك إلى المنزل، ثم جاء في المساء الطبيبُ ليحددَ العملية في اليوم التالي في غضون الساعة الثامنة.

تذوقي للحب من عينيكِ وملامسة يديكِ جعلني قوية، لم أكن أبدو بذاك الحزن الذي انتابني في اللحظات الأولى، بقيتُ طوال الليل أدعو الله كي أبقى على قيد الحياة لأجلكِ، لأكون الأجنحة التي ستحلقين بها ..

ما عاد الحب في تلك المرحلة يعني لي سوى أنتِ..

وحدكِ وغيرك لاشيء ..

حبك هو الحالة الأصدق والأهم بالنسبة لي، فيكِ أنتِ علمتُ الحب.. علمتُ معناه الطاهر، هكذا بدا استيعابي للحب.

أقسم أنني لا أبالغ بشعوري تجاهك، كان يأتيني من جوف قلبي ويرسم صوره النقية في تلوث عالمي ..

نجحت العملية، وتم استئصال رحمي، هذا يعني أني لن أكون أمًّا للمرة الثانية، تخليتُ عن أمومتي للمرة الثانيةِ لأجلِ أن أكون معك أكثر..

لم يُرضِ ذاك الجميع، ولكن لم أكن أكترث لذلك، فكل ما يهمني أنني لازلتُ على قيد الحياة لأهب لك الحياة بعيدًا عن أفكارهم، أعلم أنني كنت ضعيفة، لكن عندما يصل الأمر إليكِ أصبح صخرةً في وجوههم.

كان ذهني مملوءًا بكِ، أُفكر دومًا كيف أبعد كل الهالات النفسية البائسة عنك، كي أصنع منك إنسانة قوية، قادرة على الظهور دون الاكتراث لمن سيُعجب بك أو لا ..

فالمجتمع الواسع الذي يحتضنك مستعد لأن يجعلك مثلي كما جعلتني أمي مثلها ..

أمي التي لم تَزرني في المشفى، كانت فقط تتصل ب"إياد" لتطمئن علي، لم تُفكر بالحاجة المُلحة لوجودها قربي !!

ولكن لم يعد الأمر مهمًا بالنسبة لي، لقد اعتدت على حضورها بنصف حضور ..

أنا هنا لا أقوم بلومها، ربما كانت مظلومة مثلي، مجتمعها الذي كانت فيه حملها على أن تكون هكذا، حتى أبي كان له دور كبير في ذلك.

كنتُ أفكر دوماً أنني لن أسمح لهم بأن يجعلوكِ ضحيةً لهم، حاولت جاهدة أن أحاربهم وحدي ..

على المرء أن يخوضَ المعارك لأجل من يحب، وأنا أحبك وأؤمن بك أكثر من إيماني بنفسي.

لذلك كنت دائما شديدة القرب منك، هجرت كل تفاصيلهم البالية ورضيتُ أن أكونَ خادمةً لهم لأكون معك

***

بعد عودتي إلى المنزل ببضعة أيام دخلت جدتك إلى غرفتي وقالت :

هل لك أن تصنعي لنا القهوة؟ نريد أن نحدثك بشيء مهم.

نهضتُ مندهشةً من فكرة أن هناك موضوع في الأمر وعندما جلسنا في ساحة المنزل وبعد أن قدمت لهم القهوة، كانت هي و"إياد" ينظران إلى بعضهما البعض في صمت، ثمة شيء مترددان في قوله..

بعدها قالت جدتك: إني أخاف الله كثيراً، ولا أُريد أن أهدم بيتك، لكن أنا لا أقبل لابني الوحيد أن يبقى بلا أولاد.

لذلك بدلا من أن تصبحي مطلقة سوف أزوج "إياد" ونعيش جميعا في نفس المنزل. ابني قد صبر عليكِ خمس سنوات وكان من الممكن أن يصبر أكثر، لكن اليوم لا أمل بذلك، أنا من اليوم سوف أبدأ بالبحث له عن عروس.

ثم قال "إياد" بعد صمت مديد:

"لمار".. إن كنت لاتودين ذلك تستطيعين أن تتطلقي، لكن لاتفكري بأن تأخذي ابنتي معك، بل سوف تتربى في كنفي، وإن كنتِ تودين البقاء مع ابنتك وقبول الزوجة الثانية لك ذلك.

قرري الآن وقولي لي ماذا تُريدين، لا أُريد للأمر أن يطول، فلا صبر لي على الانتظار، علَّ تلك الزوجة تكون أفضل منك، فمنذ أن تزوجتك لم أرَ الخير في حياتي، تدققين على أبسط الأمور وتحاولين دائمًا التمرد بكل شيء ولو لم أكن رجلًا لفعلتِ ما يحلو لك وفي آخر الأمر أصبحتِ عقيمًا.

كان رأسي منحنيا وبيديّ فنجان قهوتي، كانت الدموع لشدة الكلام تسقط في فنجان قهوتي..

شربتُ دموعي من فنجان قهوتي، ونهضتُ أركضُ مسرعًا إلى غرفتي ولأول مرة بعد زواجي أمسك وسادتي مثل قبل وأدفن رأسي بها وأصرخ وأبكي وأتنهد كالطفل المكلوم.. كالأم الثكلى ..

لم يدخل أحد إلى غرفتي لمجرد حتى الاطمئنان علي، لم يُدَر مقبض الباب لأراهم يواسون الجرح النازف بداخلي..

لكنكِ أنتِ فعلتها، وأنتِ ابنةَ الخمس سنوات، وقفتِ أمامي تبكين وتقولي لي: لا تبكي.

وعندما سألتك عن سبب بكائك قُلتِ لي إنني أبكي لأنك تبكين.

يا الله ما أغلى هذه اللحظة التي امتلكتني، لقد مسحت دموعي ودموعك، ابتسمت كي لا أرى ملامح الحزن على وجهك، عانقت حضنك الصغير الواسع واستسلمت للأمر، لم يكن لديّ خيار آخر سوى البقاء والقبول بالزوجة الأولى..

أنا لم أكن الأولى لأنني لم أتزوج منه، بل سُلبت أنوثتي وقُتلت المرأة بداخلي بالزوج والأوراق القانونية، القتل هنا قانوني فلا تجريم للمتهم وليسقط المقتول في رحاب القاتل ولا عدل يحرك أحداث القضية ..

خرجت لهم بنفس اليوم وأنا على عكس ما كنت عليه قبل ساعات، وجلستُ معهم لأبثَّ لهم قبولي بالبقاء هنا مع ابنتي.

شعرتُ بأن الغضب اعتلى "إياد" وقال:

- نعم علمتُ ذلك. علمتُ أنكِ ستبقين من أجل ابنتك، وليس لأنك تحملين لي شيئًا من قبيل الحب، ولو لم أضع هذا الشرط لفضلتِ الطلاق على البقاء هنا.

كيف أحبه وقد كان بعيدًا كل البعد عن المعنى الحقيقي للحب؟، كيف لي أن أغير فكرتي عنه وهو قاسي القلب، لايشفق عليّ من الألم الذي يجتاحني؟، بل كيف أشعر به وهو في كل حياته منصاع لأوامر أمه؟!!

جميلٌ أن يكون الرجل بارًا بوالدته، ولكن ليس لهذا الحد، لقد جعل مني خادمة لهم ولمتطلباتهم وأوامرهم التي لاتنتهي..

لاتخرجي من المنزل وحدك .. لاتذهبي لبيت أهلك كثيرا

إن كنت تودين االذهاب إلى مكان ترافقك أمي ...

أين الاستقلال؟، أين الحياة؟ بل أين الحب الذي يريدني أن أشعر به وكل هذا يحاصرني؟؟

عجبتُ لأمرهم، ويأستُ منهم فقبلتهم كما هم ودون أدنى تعليق.

فكرت بيني وبين نفسي أن كل ما يعنيني في الأمر هو أنتِ فقط

ومضيت أكمل ما أردته معك، كل حياتي توجهة إليكِ وحدك، أوصلتك في البداية إلى أن تقولي لي كل ما تشعرين به، أخبرتك أنكِ رفيقتي ولن أوبخك على فعل شيء، بل سوف أرافقك للتخلص من خطأ تقترفينه.

كثيرا كنتِ تفعلين أشياء هي ليست صحيحة، إلا أني كنتُ أُحاول أن أعلمك الصواب، كان أبوكِ يصرخ بوجهي على هذه الطريقة، يرى ذلك، يشعر بالجنون، أول ما يتلفظ به هو: اضربيها فالضرب يعلمها.. إنك مصابة بالجنون!! كيف تتحدثين معها بهذا البرود؟ يجيب أن تُضرب حتى تعلم أين الصواب وأين الخطأ..!!

ولكن لم أكن أسمح له بذلك لدرجة أنه عندما كان يحاول ضربك؛ كنتُ أُخبئكِ بين أضلعي لأُقتل بدلا عنك، فالعهد الذي عاهدتك به كان يحتاج إلى تضحية مني لكيلا أخون...

هكذا استوعبت الأمور ومضيتُ أكمل المسير في هذه الحياة الظالمة التي لاتحمل الرحمة ..

استطاعت جدتك أن تجد ل"إياد" زوجة تقبل بأن تكون الزوجة الثانية وقَبلتْ بالمكوث معنا في نفس المنزل

تزوج بعد أسبوع من الوقت الذي وجد فيه عروس، شاهدت الفرحة في عيونهم والبسمة كادت تشق شفاههم دون أن يفكروا قليلا في مراعاة مشاعري ..

مشاعري؟؟

أية مشاعر هذه التي بقيت عندي؟، لقد استنفدتُ كل ما أملك من أحاسيس وأُطفأتُ كل الشموع في مدائن قلبي..

تحولتُ إلى إنسانة غريبة بين أهلها وأقرب منهم زوجها الذي كان أبعد ما يمكن عني ..

الغربة لم تكن مجرد حروف ملتصقة ببعضها بل كانت جروح نازفة، وأحلام متصلة بتقاطع تلك الكلمات، وممرات ضيقة لا تمر فيا سوى الريح..

ومن ذا الذي يخفف ما يكابدني من أحاسيس؟ من يلوي ذراع الحزن قليلا عني؟؟

أَتَذَكَّرُ أنك كُنتِ حزينة مثلي في ذهنك، إبهام لم تعلمي كيف تعبري لي عنه فجلست بالقرب مني لتسألين عن تلك المرأة وما الذي جاء بها إلى منزلنا ..

لم أكن أعلم ماذا أجيبك أو بماذا أخبرك..

ماذا بوسعي أن أقدم جوابًا لفتاة بعمر خمس سنوات؟؟

ولكي لا أثير أحقادك قلت لك أنها مثل خالتك وستبقى معنا في المنزل.

في اليوم التالي من زواجهم دخلتْ جدتك إلى غرفتي لتطلب مني تحضير الفطور لنا.. لم ترحمني في مثل هذا اليوم ..

قلت لها إني متعبة ولا أُريد الخروج.

قالت بكل حقدها لي:

- بل ستخرجبن وتحضرين الفطور رغما عنكِ، وإلا سوف أُنادي "إياد"، فهو يعلم كيف يؤدبك.

خرجتُ مرغمةً على الحياة، مرغمة على كل شي فيها، دخلت إلى المطبخ وأنا أبكي من كل شيء..

من الصعب مقابلتها ليس لأنني أشعر بالغيرة منها فهي لم تكن تعنيني شيئًا، لكن الذل الذي كان ينتابني أبشع من الغيرة، كنتُ أتمنى لو كان شعوري تجاههم غيرةً أكثر من أن يكون ذلًا..

الذلُّ صعبٌ جدًا، إنه طريقة للذبح بأدوات لم تخلق بعد..

الذلُّ يشبه الشموع التي تُضاء عندما نفقد بصيصَ النور يُشبه الصلاة التي أحتاجها عندما لا أصل إلى حاجتي..

وضعت لهم الفطور وجلسنا مع بعضنا، كانت تنظر إليَّ خلسةً بطرف عينها وكأنني أنا الزوجة الثانية.

بدأ "إياد" يقول لي "ملك" هي زوجتي الثانية، وعليكِ أن تعتبرينها كأختٍ لكِ، لا أُريد أن ينشب نزاع بينكما، هذا شيء مرفوض بالنسبة لي، وعليكم اتباع كلامي وعدم مخالفة أوامري.

هززتُ رأسي فلا كلام عندي يلامس الموقف.

بقيتُ حتى انتهوا من الأكل جميعم وقبل أن يقوموا قالت "ملك" أنا اليوم عروس جديد، اعذروني إن قمت دون مساعدتكم ثم نهضت ونظرت إليَّ نظرة حقدٍ عارم لم أفهم سببًا له.

"إياد" لم يقل لها شيء بل على العكس قال لها نعم لك ما تريدين.

نهضوا جميعا وبقيتُ وحدي أُلملم بقايا الطعام وأبدأ مسيرتي اليومية بالطهو والتنظيف وأعمال المنزل التي لا تنتهي..

وجرت الأيام على هذا الحد من السيف، كنت في كل لحظاتي أشتهي الموت، كانت "ملك" تحاول استفزازي كثيرا.. تحاول مضايقتي وفي كل مرة كنت أتحاشى أن أدخل في نقاشٍ معها وكانت في كل مرة تستشيط غضبا من برود ردي.

لا أدري ما الذي كان يجعلني هكذا، ربما كنت أخاف أن أفقدكِ، أخاف أن يُخلَق خلاف يجعل "إياد" يطلقني وحينها لا أستطيع البقاء معك، وهذا أمرٌ مُميت بالنسبة لي.

وقفتُ بوجها وبوجه الحياة لأهتم بك وأعلق فوق قلبك بصمات حب كي لا تتمني لو أنك عشتِها معي، كنت أحب أن أجد وجه الأمومة ظاهرًا في تربيتي لك.

بعد أن تزوج "إياد" ببضعة أشهر حملتْ زوجته، عمَّ الفرح على أهل المنزل، أصبحتْ تأخذ الاهتمام الأكبر وكل شيء تطلبه مُجاب لها.

حتى "إياد" ابتعد عني كثيرا، كان يقضي كل أيامه معها متناسيا أني زوجته الأولى وأم لطفلته.

حتى أنتِ قد غاب كثيرا عنكِ، كنت أشاهدك كيف تحاولين أن تقتربي منه ويبتعد بحجة أنه متعب من عمله، في تلك اللحظات كنت أحملك بين ذراعيّ وأمسح جسدك جميعه عليّ أستطيع أن أمنحك شعور أمومتي وحاجتك لدفء أبيكِ، كنتُ أُحاول أن أُخفف عنك عبء التفكير بالسبب الذي يجعل أباكِ فظًّا معك، وعلى الرغم من كل محاولاتي أدرك تمامًا أنني لا أستطيع أن أغمسك في بحر ما تحتاجينه من مشاعر..

لكنني كنت أقول دوما: علي أن أكسب شرف المحاولة في رحابك وبداخلي ذلك الفخر أني رغم كل ما أمر به أفكر بهذه الطريقة.

مرتْ شهور حمل ملك بسرعة وأنجبت صبيا واستبشروا فرحا به، اكتملت رجولة "إياد".

الذي كان ينقصه هو الآن معه وله حتى أمه كانت بغاية الفرح..

لقد مارسوا فرحتهم أمامي بل كانوا يطلبون مني إحضار الضيافة للمباركين ومساعدتها بكل شيء..

خالفوا شريعة الإنسان وكانوا أكثر قسوة من ذئاب الغابة، نهشوني بطريقة متحضرة..

بات معدني هشًّا أكثر من قبل، وصلتُ لحالة يأسٍ وفوضى وخوف وأشياء أثقل من أن تحملها الكلمات..

لأنني ضعيفة استطاعوا أن يتكالبوا علي، لأن أهلي كانوا ضدي بكل شيء.. كانوا عنيفين معي لأنه لا ظهر لي، حطموني وأكملوا على ما تبقى مني لهم وحدهم دون أن يعني لهم الإنسان بداخلي شيئًا..

عبثوا بكل لحظاتي أغرقوها بالدماء والدموع وتوضأوا بداخلي ثم صلوا وخافوا الله بمذهبٍ كافرٍ لا يمسّ الدين ..

كنت أدعو الله ليمدني بالصبر والقوة لأكمل الجحيم معهم دون أن تمسني النيران، لكن كانت دعوتي خرساء في جنح القدر ..

القدر الذي كتب لي فاجعة كبيرة قسمت شطر الحياة في كتابي..

جاء عليّ يومٌ بشعٌ جدًا يشبه الغراب في نعيقه.. يشبه الخريف في تساقطه .. يشبه الكهوف المهجورة بخرابه ..

كان ذاك اليوم بركان نفخ في روحي النيران والخبايا التي لم أتمنى أن تستنشقني..

بينما أنا قد لملمتُ الغسيل المنشور على الحبال وأردت أن أعطي "ملك" ثيابها وثياب ابنها دخلت إلى غرفتها لأُعطيها ثيابهم، وجدت "ملك" تقوم بإرضاع طفلها الذي قد بلغ ثلاثة أشهر وهي نائمة من شدة تعبها والطفل كان تحتها ..

لقد خفت كثيرا على الطفل؛ فركضتُ مسرعة أوقظها كي تبتعد عنه علَّه يكون على قيد الحياة!!

بدأتُ أصرخ انهضي طفلك تحتك، نهضت بشدة، حملتُ طفلها لأراه إن كان على قيد الحياة ..

سحبته من يدي وقالت ما الذي تفعلينه هنا؟ ماذا فعلتِ بطفلي؟

وبدأت تصرخ وتنادي حتى دخلت جدتك..

سألت: ما الذي جرى؟

من شدة خوفي لم أدرِ ما أقول

وأول ما قالته "ملك" بعد أن حاولت أن تنهض طفلها دون جدوى

"لمار" قتلت طفلي ..

"لمار" دخلت إليَّ وخنقت طفلي ..

لقد كنت نائمة استغلت فرصة نومي وقتلته ..

يالك من لعينةٍ.. ما الذي جئت به؟

بدأتْ تصرخُ في وجهي..

نادتني بالقاتلة..

اتصلتْ جدتك ب"إياد" ليأتي ..

جاء وبدأ يضربني كالمجنون، ثم اتصل بالشرطة ليبلغ عن جريمة قتل لم أقترفها ..

تجمدتُ في مكاني، سيطرت الصدمة على جوارحي حتى بقيتُ صامتة، لم أستطع القول ..

لم أستطع الدفاع عن نفسي، صيحاتهم أخرست لساني عن الحقيقة

إنهم لم يحاولوا سماعي إنهم كذبوني قبل أن أقول لهم الحقيقة ..

رأيتكِ تتخبئين خلف جدتك، نظرتُ إليكِ وكنتُ أُريد أن أحملك فأنتِ ملاذي الوحيد ..

كنتُ أُريد أن أقول لك والله لم أفعل ذلك، والله إني بريئة مما يقولون لكن جدتك قامت بإبعادي، حتى هي قامت بضربي وشتمي ولم تسمحْ لي لو للحظة أن أضمك.. توسلت إليها بشدة لكنها رفضت بالشدة ذاتها ..

وصلت يومها الشرطة ودخلت إلى الغرفة التي كنا فيها، ساقوني كالمجرمين بين الناس والكل ينظر إليَّ نظرةَ حقدٍ وكره لذنب لم أقترفه.. لجرم لم أرتكبه..

الشمس كانت آخر شيء نظرتُ إليه قبل أن أدخل غياهب السجن والوحشة.. كانت أقسى ما وُلد بداخلي في هذه المرحلة ..

كنت أمر بممرات السجن والدهشة تطرحني أرضًا حتى لم أعد أقوى على حمل جسدي ..

قاموا بسحبي لشدة ضعفي وزجوا بي في الزنزانة وحدي، بقيت ملقاةً على الأرض أنظر إلى الجدران والأرض القاسية تحتي..

أتنفس بصعوبة حتى أشعر أن أنفاسي تكاد أن تموت في رحاب هذه الجدران ..

المكان أضيق من خرم الإبرة عليّ، والقضية لا ثقوب فيها تجعلني مؤمنة بالانتصار..

ظلام دامس خيم في رأسي.. لم أقوَ على التفكير وعيناي ملتصقتان بالسقف الممتلئ ببيوت العنكبوت التي كانت خيوط حياتي أشد وهنا من خيوطها ..

كنت أُحاول أن أستمدَّ شيئًا من روح الحياة كي أبقى عالقةً في الأمل بأن أتخلص مما أنا فيه، لكن لا شيء يمنحني عود ثقاب كي أومضه ولو للحظة.

ما أبشع طعم الظلم الذي تجرعته!!، ما أشد مرارةَ ما مررت به ..!!

تمنيتُ الموت على أن أصلَ إلى تلك الأيام التي حملتني الأعباء الفائضة عن قدرتي على التحمل..

بقيت في الزنزانة ليلة كاملة، لم أسمع سوى صوت الضجيج ينبت من خلايا قلبي المُتآكل

في اليوم الثاني فتح السجان الباب وأخذني إلى رئيس السجن ثم أدخلني إلى غرفته، نظر الضابط إليَّ نظرةَ استحقارٍ عارمٍ، بان الغضب المرسوم في وجهه وقال لي لي:

كيف تجرأتِ وقتلتِ طفلًا لم يبلغ الحلم؟

ألا تخافين الله !!

ما الذي دفعكِ لارتكاب مثل هذه الجريمة؟؟

من أجل أنها زوجة زوجك الثانية تندفعين لقتل وليدها؟

هيا تكلمي دون أن تتعبيني .. دون أن أضطرَ لاستعمال القوة معك

غمرني الصمت، ابتعدتْ كل الدوافع عندي للكلام، فالصدمة التي تعرضتُ لها كانت بمثابةِ رصاصة انغمست في جوف قلبي ..

انتظرني كثيرا حتى أتكلم .. لكني شعرت أني ابتلعت لساني ..

لم يكن باستطاعتي الحديث وقول الحقيقة التي غفت بعيدًا عن الواقع .. بعد الصمت هذا قال لي:

أتعلمين أني لا أنتظرك لتقولي الحقيقة، فهي واضحة، لكن كل ما أُريده هو اعترافاتك كي أقوم بتسجيلها قب لأن تُحولي إلى المحكمة التي ستتخذ العقوبة اللازمة لك.

كما أن زوجك وزوجته جاءا معي وأبلغا عنك وبناء على ما قالاه فأنتِ متهمة بقتل الطفل.

لشدةِ غضبه مني صرخ بأعلى صوته للحاجب على الباب وقال له أعدها إلى زنزانتها.

عدتُ واتخذت من زاوية الزنزانة مكانًا وجلست فيه ..

قيدتُ رأسي بين ذراعيّ، تَبعثرتْ كل تفاصيل حياتي بين يدي واستسلمت للحالة التي كنت فيها، حتى أن مدامعي تجمدت.. لم أستطع البكاء كي أخفف شدة البث المُحيط بي.

وبعد مضي بضع ساعات عاد السجان ليعيدني إلى غرفة الضابط وإذا بالغرفة أمي وأبي..

قال الضابط سوف أترككما معها علَّها تقتنع بقول الحقيقة
بدأ أبي يصرخ ما الذي فعلته؟ أي طين هذا الذي وضعتنا به؟
ما الذي دهاك لفعل هذا؟
مسكني بكلتا يديه وبدأ يهزني ويقول لي تكلمي هيا، وأمي تجلس على الكرسي وتبكي وتقول يالله العار الذي نحن فيه!!
قلتُ يومها لأبي: وهل صدقت أني قد أفعل ذلك؟
والله لم تقترفه يداي ..!!
إنني أضعف من أن أفعل ذلك ..
كنتُ أُريد أن أعطيها ثيابها ووجدت جسدها منحني على الطفل
أقسم أني أقول الحقيقة ..
أرجوك يا أبي صدقني.. أرجوك أخرجني من هنا ..
أنا لست مجرمة أنا لست قاتلة..
قال أبي:
-كفاكِ كذبًا.. كيف لي أن أصدقك وهي تقول أنه كان نائمًا في سريره وأنت كنت بجانب السرير وبيدك ثياب خنقتِه بها؟
-لا يا أبي، لقد كان نائمًا بالقرب منها، وأردتُ أن أعطيها ثيابها ..
إن "ملك" تكذب والله، إنها لم تقل الحقيقة بماذا أقسم لك؟
ثم عاد وقال لي:
كيف لي أن أصدقك وأنت تكرهينها لأنها زوجة زوجك؟ لقد شعرتِ بالغيرة منها لأنها تستطيع أن تنجب وأنت لم يعد بوسعك ..

نظرتُ إلى أمي وجلستُ عند قدميها قلت لها: أرجوك قفي جانبي لا تتركيني .. إنني أحتاجك بوسع المصيبة التي أنا فيها، لم تسمح لي أن أتابع الحديث معها !!

أبعدتني وبدأت تصرخ في وجهي، بدأت تنهال علي بكلامها القاسي بأني جلبت لهم العار وشوهت صورتهم أمام الناس.

لم يكن يهمهم الموقف الذي أنا فيه أكثر من أن العار قد كساهم نهضت أمي وقالت لي أنت لست ابنتي.. أنا لم أُربي فتاة مجرمة، ونحن أبرياء منك إلى الأبد.

قلت والبكاء يكاد يفطر قلبي :

لا يا أمي أرجوكِ، أتوسل إليكِ لاتتخلي عني.. إنني بأمس الحاجة إليك، إنني أحتاج أن تُصدقيني ..

أنا مظلومة أحتاج لكم كي أنتصر أمام ظلمهم ..

صدقوني إنهم ظالمون.. إنهم عنيفون كالخناجر.. كاندفاع السهام.. كاللعاب السائل من فم البندقية.. كانصهار النيران من عمق الخطايا.. كالضباب أغشوا بصري، جعلوني كالعمياء أمر من عكازهم ..

لم تتحدث بكلمة، اكتفت بالبكاء ثم سحب يدها أبي وخرجا، أداروا لي ظهورهم لأواجه الظلم وحدي.

خلال هذه اللحظة شعرت أن كل شيء قد غادرني حتى روحي لم تعد هي روحي.. كأنها قطعة قماش كسوت بها جسدي.

أعادني السجان إلى زنزانتي وبقيت فيها أحيك قلبي الذي تمزق وبالكاد أسمع دقاته تطفوا تحت جلدي

عدت إلى الزاوية المظلمة نفسها وعيوني تروح وتغدو على كل شيء في ذاك المكان المعتم

حاولتُ أن أبحث عن مفر لي مما أنا فيه، جاهدتُ لأجدَ ضوءًا يصلني إلى خارج القوقعة التي أنا فيها.

في الزنزانة يحاولُ المرء أن يبحث متعمدا عن حلم يوصله بالخارج، يحفر الثقوب علّ ثقب يوصله بالخارج، وإذ به يمر في زنزانة مجاورة فمجاورة إلى أن يجد نفسه هالكًا في بؤس السجن..

أرجاء روحي خاضت حربًا قاسيةً، وكان بعد كل هدوء عاصفة تغمر ما تبقى مني ..

فبعد أن مرت عدة أيام وأنا على هذا الوضع، صمتٌ وانهيارٌ كاملٌ لكل قوتي، حتى أني لا أتذكر أني شربت ولو قطرة ماء.

كيف أشعر بالارتواء والجفاف قد حصد كل تفاصيل حياتي، قلب كل الأمور على رأسي حتى بدوت الظالمة القاتلة التي لاتستحق أن تبقى على قيد الحياة؟؟

تم تحويلي بعد مدة إلى القضاء لمحاكمتي، ساقوني كالغنمة إلى غرفة القاضي..

كان "إياد" وزوجته في الغرفة يريدون أن يُقدموا شهادتهم على ذنب لم أقترفه ..

رأيته ينظر إليَّ وكأنه يود أن يقوم هو بقتلي، حتى هي كانت تمتلك نفس تلك النظرات !!

قام "إياد" واقترب من المكان الذي يفصل بيني وبينهم بسلاسل حديدية وقال لي:

-أنتِ طالق.

ثم أدار ظهره عني للمرة الألف.

عم الهدوء في المكان ودخل القاضي ليسمع شهادت "ملك" و"إياد"

لا أدري كيف سمحتْ قلوبهم لهم بأن يحلفوا بكتابِ الله زورًا..

كنت مغيبة تمامًا عن الحياة، كنت أقف مندهشةً في حالةٍ هستيرية جعلتني أشد صمتًا من ذي قبل.

وضعت "ملك" يدها على المصحف وحلفتْ لهم بأنها استيقظت ورأتني أخنقُ طفلها بالثياب التي كانت بيدي.

حتى "إياد" قال أنه في تلك اللحظة دخل ورآني في ذات الحالة وأنا لم أره يومها إلا بعد وقت.

يا إلهي ما هذه المصيبة التي حلت بي؟!!

صرختُ بأعلى صوتي :لاااااااا..... لاااا...

صدقوني ..... أنا بريئة من التهمة .....

واللهِ لم أفعلْ ذلك..

كنتُ فقط أُريد أن أعطيها ثيابها، هو كان تحت جسدها..

هي لم تقتله بقصدها ... لقد غفت وهي تقوم بإرضاعه

قال القاضي:

- كفي عن الصراخ .. هناك شاهدين على جريمتك كيف لي أن أصدقك؟

قال لي: هل هناك شهود على ما تقولين؟
-لا ليس لي سوى الله شاهدًا
قال : إذًا لاتملكين دليلًا على براءتكِ

لم أعلم ماذا أقول في هذه اللحظة القاهرة التي كسرت كل شيء بداخلي، كل أبواب الحياة موصدة في وجهي، جعلتني أبدو قابلة للتفتت بسهولة ..
قدماي لم تحملاني على النهوض فجسلت على الأرض، أنتظر المصير الشاحب.
ساد الهدوء مرة ثانية قاعة المحكمة..
ثم قال القاضي قررت المحكمة تجريم المتهمة "لمار" والحكم عليها بالسجن مدى الحياة.
صرخت بحجم الهلاك الذي كنت فيه :
لا..... لا..... لا أرجوكم ...لا... لاتفعلوا بي هذا. والله إنكم ظلمتموني بالله عليكم هوناً بي ... لماذا لاترحموني؟ ارحموا الضعيف بداخلي !!
انهارت كل قواي وظللتُ أصرخ: لا لا لا
أُريدُ ابنتي.. أُريد ملاذي.. أرجوكم هاتوا لي ابنتي ..
ائتوني لي بها تخفف ثقل روحي ..
ثقل الموت المسكوب في كأسي ..
هيا اجلبوها أرجوكم .. أتوسل إلى الطيب فيكم إن كان فيكم طيب

"إياد" .. أرجوك أُريد ابنتي ..اجلبها لو لحظة كي أراها
ارحمني .. لو لحظة..
"إياد" لم يسمعني، أدار ظهره وخرج من القاعة ولم يكترث لما حل بي . فقدت صوابي تمامًا وانهارت عزائمي حتى غبتُ عن وعيي وأنا أناديكِ. لم يكن على لساني سوى اسمك.. لم تعد عالقة في ذاكرتي سوى صورتك ..لم أكن أودّ شيئًا بعد هذا سوى أنتِ..
لكن حتى أنتِ لم تأتي...
لهول ما جرى أصابني انهيارٌ عصبيٌّ حادٌ فنقلوني إلى المشفى، بقيتُ فيها مدة، كنت في هذه المدة غائبة تمام عن الحياة، لا أملك في ذاكرتي سوى ذاك الموقف ولم يكن لدي حاجة لأحد سواكِ..
أصابتني هستريا بإرادتك، أنام وأستيقظ واسمك لم يفارقني
أنتِ الذي صبرتُ لأجلها ، أنتِ الروح التي كنتُ أشعر بالحياة من خلالها، والربيع الذي سقى روحي ماء العشق، نعم أنتِ النبضُ الذي لم أكن أشعر بارتجاجه بين أضلعي إلا لأنك فيه ..
أنتِ المكان الذي اعتكفتُ فيه عن قذارة العالم الذي كنت فيه، والضوء الذي كنت أرى من خلاله.
تحولت دونك إلى إنسانةٍ عمياء، إلى إنسانةٍ تحيا على قيد الموت.
حان الوقت بعد استيقاظي من ثباتي لإعادتي إلى السجن، مع مرتكبي الجرائم لأواجه عالمًا آخر، عالمًا شاقًا وصعبًا، نقلة قوية أتلفت صبري ..

فماذا سأحتمل، فراقك أم وجودي في مكان ليس لي؟ ولا أمل عندي، أمل ماذا؟

أمل رؤيتك أم خروجي؟، كلاهما بات مستحيلًا..

فلمَ ستكون حياتي؟ وعلى أي نور سوف أهتدي؟ وأنتِ أصبحتِ في عالمٍ مجهول.

دخل الحارس إلى غرفتي في المستشفى وكبلني ليتم ترحيلي إلى سجن النساء في المدينة..

أبدو كالذلية وأنا أُساق إلى السجن، ينتابني خوف كخوف الأرانب من مواجهة عالم لم أعلمه قط، وفي رأسي متلازمة كآبة ما بعد الصحو ..

أدخلني السجان إلى داخل المركز وتم تسليمي إلى رئيس السجن ثم أدخلوني إلى الغرفة الواسعة التي يسكنها حوالي عشر سجينات.

قالت لي السجانة:

- هذا تخت فارغ خذيه لك.

دخلتُ وأنا منحنيةَ الرأس، وجلست على السرير دون أن ألتفت إلى من حولي ..

دون أن أتكلم مع أحد ..

دون أن أملك القوة بأن أرفع رأسي وأنظر إليهم ..

عالم جديد مخيف مجهول يحمل في داخله أشياء لا أدري عنها شيئًا

اقتربت مني إحدى السجينات وسألتني عن اسمي

قلت لها بصوت مرتجف :"لمار"
قالت لي لماذا أنتِ خائفة إلى هذا الحد؟
ما بكِ؟
اكتفيت بقول :لا شيء
فتركتني وانصرفتْ وجميعهم في حالة دهشة من خوفي وانطوائي
غضضتُ بصري، لو كان بوسعي أن أغلق عيوني عن نفسي لما قصرت بذلك ..
كان ذهني مكبل بك، كنت أُحاول أن أبحث عن طريقٍ يوصلني إليكِ، عن حبلٍ أتشبث به لأخرج مما أنا فيه، لأكون معك لكن الطرق المسدودة توصلني إلى اليأس فأبكي ملئ جفوني لأني في أمرين كلاهما أشد صعوبة من الآخر، أنني بعيدة وأنْ لا طريق سيقودني إليكِ..
منقسمة بين نصفين يسفحان بي، كل منههما على طريقته وأنا منهما أتشردق بالألم ..
وصلت إلى حال يرثى له، أصبحت شجرة محطمة الأغصان كساها الخريف في كل الفصول.
تخلى عني الجميع وأنا بأمس الحاجة لأحد يساعد روحي ويخرجها من كل هذا الركام.
قطعوا اليد التي كانت لهم في كل شيء، ولماذا لايقطعوها أن كانت ملكهم؟، يفعلون ما يحلوا لهم بها، ثم عند الاكتفاء لن يفكروا بما في داخلها من روحٍ تنزف.

عندما يكون الإنسانُ ضعيفًا مسالمًا سيفجع حتما بكل من حوله، حتى أولئك الذين يدّعون أنهم يحبونه، سوف يتعرض منهم لصدمات قادرة أن تطرحه أرضا لقسوتها، فالضعف يفسح المجال أمام الأقوياء ليمارسوا قوتهم عليه، حينها لن يحميه ضعفه منهم بل على العكس سيحارب الضعف معهم لينتقم منه لأنه فتح المجال لهم لتذليله.

بقيت طوال اليوم جالسة كالأصنام وكأني أرفض هذا الواقع ولا أُريد الاقتناع أنني هنا في مكان بارد قاتل، لم أكن أتوقع أن تطأه قدماي، وبينما كنت في هذه الحال عادت المرأة التي سألتني عن اسمي وجلستْ بالقرب مني، وضعتْ يدها على كتفي وقالت لي:

- هوني على نفسك، اصبري .. إن الله مع الصابرين.

أغلبنا هنا بظلم، ولا نملك غير الصبر والدعاء، لاتقنطي من رحمة الله .. إذا بقيت هكذا ماذا سيتغير؟ هل ستُفك قيودك؟ هل ستُحل عقدك؟

اتركي كل شيء وتوكلي على الله ..

اقتربتْ أكثر مني وقامت باحتضاني ..

ياإلهي..!! كم كنتُ بحاجة إلى تلك اللحظة التي يأتي فيها أحدهم لأخبئَ كلي فيه وأبكي!!

انفجرت مدامعي بالبكاء، بكاء تصحبه الشهقات القاتلة، الآهات المنكوبة، ملأتُ عباءتها بالدموع وهي لم تتحدث، بل كانت تشدني إليها أكثر وكأنها تفهم ماهية ما أحتاجه في تلك اللحظة.

رفعتُ رأسي عنها ونظرت إليها ثم قلت لها:

إنني هنا ظُلم، لو أنني اقترفتُ ذلك ما كنتُ مستاءةً إلى هذه الدرجة.

قالت: نعم؛ إنني أصدقكِ.

قلتُ لها: حقا تصدقين؟!

قالت لي: نعم.

قلتُ لها: لماذا صدقتِني رغم أنك لا تعلمين ما القصة، وهم علموا ولم يصدقوني؟

قالت لي: كثيرون هم المظلومون في السجن، ولو كان هناك مقترفي ذنب قد يكونوا أبرياء ساقتهم الممرات الضيقة لاقترافه، فكانوا مذنبين أبرياء؛ دفعتهم قساوة الظروف لارتكاب ذنبهم فكانوا مجرمين ولكنهم في الواقع هم أبرياء.

كانت امرأة فصيحة، كلامها كان منمقا ولا يليق بها أن تكون في السجن.

ثم قالت لي: استلقي ونامي؛ فأنتِ بحاجةٍ إلى الراحة، وانسي كل شيء.. ضعي كل شيءٍ خلفك وابدأي من جديد..

قلتُ لها كيف أبدأ من جديد وهناك أشياء أردتها في الجديد وضاعت مني؟

-لا عليكِ لاتفكري نامي فحسب

استلقيتُ على سريرٍ من هبة السجن، وكانت أشواك الماضي توخز روحي، أتقلب يمينا وشمالا، أُحاولُ أن أغمضَ عيوني عن الواقع لكن كان ذلك صعبٌ جدًا.

تذكرتُك، حينها أغمضتُ عينيّ واستجلبتُ صورتك وحضنتها واستحضرتُ عطرك فاستنشقته بشدة حتى غبتُ عن الحياة بالنوم واستيقظتُ على صوت المرأة التي حضنتني في الليلة التي قبلها.

قالت لي: هيا انهضي واشربي الشاي معي.

قلت لها: ما اسمك؟ لقد تحدثنا ولم أنتبه أنني لم أعرفه.

قالت لي: اسمي "فاطمة".

جلستْ بالقرب مني وهي تحاول أن تبتسم في وجهي كي أبتسم، إنها لطيفة للغاية ..

لمستْ جرحي بغاية الحنان الذي كنتُ أفتقده، وضعت يدها على الحلقة الفارغة التي أذابتني ..

قالت لي: حاولي أن تسلمي الأمر لله، وانسي أو تناسي؛ فالحياة هنا طويلة، هل يعقل أن تقضي وقتك هكذا؟ سوف تزهقين نفسك ولا نتيجة ستحصلين عليها..

انظري حولك كم هن كثر النساء اللواتي هنا؟!، كل واحدة منهن تملك قصةً وجرحًا ينزف من قصتها، ربما تجدين فيهن المذنبة ولكن هناك مظلومات .. فكري بما هو جميل ..

ابتعدي عن ذبذبات الحزن التي تشحن روحك بالاكتئاب ..

أعلم أن هذا صعب ولكن حاولي، لا تستسلمي كي لا تصابي بالجنون.

قلت لها:

- لا أعلم أي فرح هذا الذي أستطيع أن أستجلبه وأنا محاطة بالقيود، سجينة لا أعلم سبب عن وجودي هنا سوى ظلم فتك بي، تركت خلفي طفلةً بحاجة إليَّ ..

الآن تُرهق دوني، إنها معتادة علي، كيف حالها دوني؟ وكيف ستكون في ما بعد؟ وأنا كيف سأحتمل فراقها وهي عشقي؟ إنها التيم الذي لم أشعر به إلا بها!!

وماذا عن عائلتي التي تخلت عني؟، صدقت الغير دونا عني، تركوني أُذبح وهم ينظرون إليَّ؟ لم يهتموا إلا بأنفسهم، فما كان لهم إلا أن يتركوني أصارع الظروف وحدي.

قولي لي بالله عليكِ أيّ أمل تتحدثين عنه؟

قالت لي "فاطمة" وهي تكاد تبكي علي:

- أعلم كم هو صعب، ولكن ماذا عسانا فاعلين أمام قدر حديدي سيكسرنا أن لم نقبل به؟

إنني لم أعد أستطيع قول شيء لك سوى طلب الصبر لك من الله لأنه الواحد الذي يعلم ما بك، ويعلم الظلم الذي اقترفوه بحقك ويدري المرارة التي تتجرعينها بسبب الذي مررت به.

ساد الصمتُ بيننا وبقيتُ غارقةً بأفكاري، أتسكع في أزقة عقلي، أمرُّ بين ذكرياتي القاسية، أفتحها واحدةً تلو الأخرى وأتجرع مذاقها المعتق الذي كاد يزج قلبي في مقابر الأموات، في تلك اللحظات قرأتُ نفسي حرفًا حرفًا، بل كانت هناك أبجدية معقدة ملتفة بتلافيف عقلي..

أدركتُ كم أنني ضعيفة مهمشة، عبارة عن آلة يتم تحريكها كما يريد صاحبها ..

شعرتُ أن لا وجود لي في هذه الحياة .. إنني عبارة عن جسد تسكنه روح عُجِنت كما أرادوا وليس لي الحق بأن أفعل أي شيء بنفسي ..

استطاعوا أن يغرسوا الخوف وأشواك الضعف بدقة ..

استنسخوا من الوهن نسخة وكنت وجهاً للوهن الذي قدموني له ..

فكيف أكون وأنا بعيدة عن أناي التي كانت أبعد من الأطلسي؟

كنتُ هم، أمثلُ الصورة التي يُريدوني أن أكون عليها، ثم ماذا؟

مزقوني وبعثروا فتاتي فوق ظلم الحياة حتى وصلت إلى السجن..

إن السجن لم يُشعرني ببرودة أشد من برودة السجن الذي قابلته في أول حياتي ..

سجن عاداتهم وتقاليدهم وكرههم للفتاة، ، كرههم لفكرة أن تتعلم الفتاة، أن ترفض، أن تناقش، أن يُسمح لها أن تتزوج الشخص الذي تشعر بأنه هو نصفها الآخر، هو الشخص الذي خطف قلبها

كُرههم لسماع كلمة "لا"، الكلمة التي حُذفت من قاموس حياتي، أصبحتُ أخاف منها وكأنها رصاصة ستدميني إن نطقتها ..
ثم بعدها تركوني في السجن لا نصير لي سوى الله..
نعم الله الذي يسمح لي بأن أقول له كلمة لا .. ولا يُعاقبني ..
بعد كل هذا التفكير شعرتُ أن آخر جملة قلتها لنفسي بصيص أمل سيمدني بالخارج..
الله الذي يعلم خفايا الأمور ويعلم حجم الظلم الذي تعرضتُ له هو الوحيد الذي يستطيع أن ينتشلني من ظلمات سجني، قادر أن يكبح كل مخاوفي وأحزاني ..
إنه قادر أن ينتشل روحي المنكسرة وقلبي الضعيف من أحشاء الانكسار واليُتم الذي يحيط بي ..
وهو الوحيد الذي شهد الواقعة، وعلم كم خدشتني أظافر الخذلان منهم..
يعلم كم هي مظلمة الأجنحة التي احتضنتني وصوبت بكلتا يديها خناجر الليل على ظهري، فقررت الهرب من كل ما أنا فيه إليه، بأن أبكي على الأرض كي تمطر مدامعي في السماء، أن أخبره عن الحال الذي وصلت له، أن أقول له كم أتعبني شوقي لكِ.. لروحكِ.. لاحتضانكِ.. لأن أضمك بين يديّ...
لأقول له كم صبرتُ على هذا البعد كصبرِ يعقوب على فراق يوسف أو أشد صبرا..

لأطلبَ منه أن يحفظك. أن يكون معك في كل خطوة، أن يرافقك في كل طريق، أن يعطيكِ القوة أمامهم كي لا يتخذوا منك ضعيفة مثلي، لقد وهبتك لساني، يلهج بالدعاء لك، لقد غفوتُ مرارا على سجادة الصلاة وأنا أتوسل إلى الله كي تكوني قوية، تصلين إلى ما تريدين توسلتُ اليه أن أكون معك وأنا غائبة عنك..

سألته أن يُريني إياك لو بحلم أتصبر به ..

نعم لو حلم أراكِ من خلاله، أستطيع فيه أن أتبخر بروحك الطاهرة لقد ارتحت كثيرا في هذا الهروب، كنت كل يوم أتقرب فيه إلى الله أشعر بارتياح يجعلني أملك العالم بأسره..

لقد سمعني، لم يقاطعني أبدا .. لم يستهزئ بعبء المشاعر التي أحملها، بل كان يمنحني ارتياحًا، كان يمنحني أحلامًا أراها في نومي تُشعرني أن هناك سبيل إلى الخلاص.. إلى الحرية التي بدأت أراها تثمر منذ أن وضعتُ جبيني على الأرض لأسجد له ..

رغم أن الخلاص لم يكن قصيرا إلا أنه أتى، نعم أتى وأثمر كالمعجزة في طريقي ..

فبعد مرور ثماني سنوات وأنا خلف قضبان السجن جاء عفو عن المساجين وقد شملني العفو حتى "فاطمة" كانت مسرورة جدا عندما تلقت الخبر قالت لي:

- أرأيتِ؟ هذا هو الأمل الذي حدثتك عنه..

سننطلق إلى الحرية..

قلت لها: الحمد لله على ذلك.
بعد ثمانِ سنوات أُطلق سراحي ..
فرحتُ كثيرا في ذلك اليوم شعرت أن الأرض واسعة في صدري لكنها ضاقت عندما فكرت إلى أين عليّ الذهاب ..
أهلي؟، إإنهم تبروا مني ولن يستقبلوني.. ولو استقبلوني سيسجنوني مرةً أُخرى ويحكمون علي بالبقاء في المنزل مدى الحياة ..
لا لا ..هذا شيء مستحيل !!
فكرت أن أمر إلى منزل "إياد" لكي أراكِ فقلبي المشتاق لم يعد يحتمل لكن أيضًا لن أستطيع رؤيتك، إنهم سوف يقومي بطردي وحينها لن أتمكن من الوصول إليكِ، وهذا سيكون قاهرا لي بعد هذا الغياب أُحرم منك ثانية..
كما أني فكرت كثيرا قبل أن أصل إليكِ، ماذا قالوا لك عني؟
من المؤكد أخبروكِ أني قاتلة، وربما كرهتنِي، ويالها من نار توقد مدافئي من حطب ابتعادك..
شعرت بضيق لهذا الأمر وقلت ل"فاطمة" عما يجوب في ذهني فقالت لي: لا عليكِ، أنا أملك منزلًا وأعيش فيه وحدي، تستطيعين أن تبقي عندي حتى تحلي أُمورك ..
قلت: حقا ؟؟
قالت لي: نعم هذا مؤكد، لن أتركك في مثل هذا الظرف وحدك..
إنني سأقف معك حتى تقابلي ابنتك
قلت ل"فاطمة" :إنني أشكر الله أني عرفتك..

في أول يوم لي خارج السجن تسكعت برفقة "فاطمة" في الشوارع كالمتسولين، لكني أحببت ذاك التسكع، عشقته بعد طول غياب قدماي تحتي تضحكان أكثر مني، لم أهتم لطول المسافات والوقت، كل ما يهمني ألا يفارقني ذاك الإحساس الجميل الذي لم أشعر به منذ مدة طويلة.

ذهبت مع "فاطمة" إلى منزلها الصغير الذي يتكون من غرفة صغيرة وداخلها حمام صغير ومطبخ، قالت لي عندما دخلنا:

- لا عليكِ، البيت سيسعنا، سأضع لك فرشة أمام سريري لتنامي عليها.

قلت لها: ليس مهمٌ ذلك.. المهم أننا خارج السجن.

وبعد مرور عدة أيام كان لابد لي من أن أبحث عن عمل أقتات منه وأستطيع من خلاله استئجار منزل خاص بي، وليس هذا كل ما في الأمر، فكنت أفكر بذلك لأجلك، كيف لي أن أطلب منك أن تاتي معي وأنا لست أدخر المال ولا بيت عندي لتسكني فيه معي؟

لابد أن أكون قوية وأنا أقف أمامك وأطلب منك أن تتركي حياتك وتأتي معي ..

لذلك قررت أن أبذل قصارى جهدي وأن أبحث عن عمل وأستأجر منزلًا لي وأتمكن من إدخار المال لأجلك.

وهذا ما فعلت، عانيت الأمرّين وأنا أذهب من مكان إلى مكان باحثة عن العمل لي وأنا لا شهادة بيدي تستطيع أن تمنحني عملًا جيدًا.

كنتُ أفكر لو أن عائلتي سمحت لي بإكمال دراستي وامتلكت شهادة وفي مثل هذه الظروف أجدُ عملًا محترمًا يقني من الذل هذا، لكن الأقدار تعصف بما نُريد، فيكون ما نريد في ما لانريد..

وفي إحدى الأيام التي عدت فيها خائبة من إيجاد عمل وبينما أنا جالسة مع "فاطمة" قالت لي:- أبشري

قلتُ لها: ماذا ؟

قالت: وجدت لك عملًا.

قلت لها: حقا ؟

قالت لي: نعم في نفس معمل الخياطة الذي أعمل فيه، ومرتبه جيد

قلت لها: لكني لا أُجيد الخياطة

قالت: لا عليكِ، سيكون في البداية صعب، لكن ستتقنيه .. أستطيع أن أعلمك.

قلت لها: إن قبل صاحب العمل لا أمانع في أن أجرب.

وفي اليوم التالي ذهبنا ورأيت صاحب العمل وقال لي سوف يضعني تحت التجربة لمدة أسبوع إن كنت أستطيع ذلك سيقبلني، بذلت قصارى جهدي لأكون عند حسن ظنه، ليس لأنه يهمني حسن ظنه أكثر من أنه يهمني أن أصل إلى ما أُريد.

استطعتُ أن أُثبت نفسي في هذا الأسبوع وقبلني، ولكني عرضت عليه أن أعمل بدوامٍ كامل حتى المساء ويعطيني زيادة ووافق على ذلك ..

قضيتُ معظم وقتي في معمل الخياطة وعندما ادخرت مبلغًا من المال قررتُ أن أخبر "فاطمة" أنني أُريد البحث عن غرفة لأخفف عنها ثقلي، ولكن يوم أخبرتها شعرتُ بالحزن في عينيها ..

قالت لي: لا.. أرجوكِ ابقي هنا فإني مستأنسة بك، في وجودك لا أشعر بالوحدة .. ثم أنت أمامك طريق شاق، الأفضل من أن تضعي نفقات لأجرة المنزل هو ادخارها لابنتك، عليكِ ألا تتسرعي ..

كانت "فاطمة" حينها محقة، الطريق شاق أمامي..

وافقتُ "فاطمة" في رأيها وقررت أن أبقى معها في بيتها حتى أستطيع الوقوف على قدمي ..

بقيت أدخر المال وفي كل مرة أشعر بلذة عندما أشعر أنه لأجلك

مرت حوالي ستة شهور من العمل الشاق والأمل المخيف من مقابلتك، ولكن لابد لي أن أحسم أمري معك ..

إن المال الذي ادخرته يكفي لأقف على قدمي وأكمل برفقتك

لذلك قررت أن أراكِ، فكرت في طريقة أراكِ فيها بعيدًا عن أعينهم فذهبت إلى الحارة التي تسكنين فيها برفقة والدك وجدتك، وراقبت المنزل في الصباح؛ لأنه الوقت الذي تخرجين فيه من المنزل، فمن المفترض أن تكوني في الصف التاسع، لكن دون جدوى.. لم أركِ أبدا، كنتُ قد شاهدت "إياد" قد خرج مرات، كاد قلبي يسقط من خوفي بأن يعرفني لكني استطعت أن أختبئ.

تعجبت كثيرا لأنك لم تذهبي إلى المدرسة، خفتُ كثيراً أن يكون قد حدث لك مكروهًا..

لقد بكيتُ لشدة قلقي، لكني قدمتُ إجازة من عملي كي أروح وأغدو أكثر من مرة، علك تخرجين ..

إلى أن جاء اليوم ورأيتكِ تذهبين برفقة جدتك، تمنيتُ لو أطوي الأرض لأصل إليك لأستجمعك في روحي، ولكني شعرت أن قدميّ لم تعد تتحركا، التصقتا باللاشيء، شعرت أني أُريد الزحف إليكِ

أن أصرخ توقفي يا ابنتي.. توقفي يا فلذة كبدي ...

وضعتُ يدي على فمي كي لا تخرج صياحاتي على مسامع الملئ ومضيتُ أجر نفسي إليكِ اتبعتك أنت وجدتك، عليّ أحظى بك بعيدًا عن جدتك..

بقيت أُراقب المكان وأُحاول من بعيد لفت انتباهك علك تأتيني إلا أنك نهضتِ وحدك وبقيت جدتك جالسة على الكرسي فاتبعتك إلى أن خرجتِ من الحديقة، إلى أن التفتي إليّ ..

ورأيتني .. وها أنا ذا أمامك يا ابنتي ..

أقف أمام محكمتكِ العادلة، فلا تجوري عليّ في حكمك كما جاروا، أقسم لك بحاجتي إليكِ فلا تتركِني.

وضعت يدي على وجهها أتلمَّسُ حقيقته..

قلت لها:

- آاااه يا أمي.. إن حاجتي إليكِ أكبر من بحور العالم وأكبر من أكبر مجرة في السموات ...

أخذتُ أمي إليَّ بشدة وهي عانقتني بشدة حتى شعرتُ أن أضلعي اختلطت بأضلعها ..

ثم نظرتُ إليها وقلت لها يا أمي إني تألمتُ مثلك تمامًا، عانيت مثل ما عانيتِ ...

زوجةُ أبي تكرهني، اتخذت مني خادمة لها ولأولادها الثلاثة

حتى أبي موافق على ذلك، حتى أنه أرغمني على ترك المدرسة والبقاء بالبيت..

إنه دائما قاسٍ معي، كنت أحتاج إلى لحظة دفء بقربه لكنه يُحب إخوتي أكثر مني ..

لقد تعبتُ منهم، أتصدقي أنهم لا يسمحون لي بالخروج وحدي إلا إذا رافقني أبي أو جدتي...؟؟

-آاااه يا ابنتي ... كم عانيتِ بسببي !!!

أرجوكِ سامحيني، فوالله لم أكن السبب في ذلك، هي زوجة أبيكِ اتهمتني بشيء لم تقترفه يداي..

قلت لأمي: إنني أصدقكِ، فهي قاسية القلب.

-حقا يا ابنتي تصدقينني؟

-نعم يا أمي

قالت أمي:

يالها من لحظة من أجمل لحظات حياتي !!
كان أكثر شيء يخيف داخلي ألا تُصدقيني ..
قلت لها وعيناي لم تفارق وجهها:
-كيف لا أصدقك وأنا قاسيت جزءًا مما حييته؟
قالت لي حينها وعيناي لاتود مفارقة وجهها:
إلى هذه الدرجة مستاءةٌ وأنت في مقتبل العمر؟ ماذا فعلوا بك؟ ما أشد الصخرة التي تلتصق في قوبهم!!!
-وماذا بعد يا أمي؟
قلت لها:
- ما رأيك أن تتركي بيت أبيكِ وتهربي للحياة معي دون أن يعلم أحد في البداية؟
-وكيف ذلك يأمي
-سأخبرك، أولا يجب عليكِ أن تعودي إلى جدتك وفي مساء اليوم تجلبي من المكان الذي يضع فيه أباكِ أوراقه ورقة تثبت أنني أمك، وتجلبي معك هويتك، واكتبي لهم ورقة لكيلا يعتقدوا أنك قد هربتِ مع شاب وقولي لهم فيها أنكِ تُريدين العيش معي، وفي صباح الغد قبل أن يستيقظ الجميع أراكِ هنا ..
عليكِ ألا تخافي ..
والآن عليكِ أن تذهبي، فمن المؤكد أن جدتك إما عادت أو أنها تبحث عنك، إن لم تجديها في الحديقة اذهبي إلى المنزل وقولي لهم

أنك سقطتِ أرضا أو أنك تعرضتِ لحادث بسيط، املأي ملابسك غبارًا وترابًا كي يصدقوكِ.

عانقتها قبل أن أتركها وأودّ أن لا أتركها ..
دخلتُ إلى الحديقة مسرعةً أبحث عن جدتي ولكنني لم أجدها، عدت أدراجي وأنا خائفة مما سيحلُّ بي من عقاب إن قالت جدتي لأبي أني تركتها وذهبت.
بينما أنا أفتح باب المنزل إذ بأبي خلف الباب، انهال عليّ ضرباً، بدأ يصرخ أين كنتِ إلى هذا الوقت؟، كيف تجرأتِ وتركت جدتك وحدها؟
كم أنك وقحة!!
هيا اعترفي أين كنتِ ؟ أنا لم أربكِ.. هيا تحدثي أين كنتِ؟
قلت له وأنا أرتجف من الخوف:
يا أبي كيف أتحدث وأنت تضربني وتشتمني؟
والله لم أفعل شيئًا، وأنا أمشي في طريقي لشراء الشراب صدمتني سيارة ووقعت على الأرض فأخذتني صاحبتها إلى المشفى لتطمئن علي ..
انظر إلى ثيابي كيف امتلأت بالتراب والغبار..
تستطيع أيضًا غدا أن تذهب إلى المشفى وتتأكد بنفسك
قال لي :

سوف أذهب غداً إلى المشفى، وإن كان كلامك كذبًا ستعاقبين أشد العقاب.

لم أبكِ، ولم أشعر بألم الضربات التي وجهها لي أبي، بل كان الفرح يغتال قلبي لأنني عانقت أمي..

لأول مرة يدغدغ قلبي شعور الحب الصادق، الحب الذي لم تلوثه قسوة الحياة والظروف، لمساتها لي في صغري بقيتْ تحيا في روحي، كانت مخبئة في شعوري المعتم الذي استضاء بها وحدها.

إنني لم أكرها قط رغم ما سمعته منهم بل ازددتُ تعلقًا بها، ازددتُ إيمانا بأني سوف أراها يومًا وأعلم الحقيقة التي لا تستطيع أن تكذب بها أمامي..

فأنا طوال هذه الفترة علمتُ من هم ومن تكون زوجة أبي ولا أحتاج إلى دليل وقرينة كي أصدق أمي، فالحقيقة ظاهرة بعيون الحقد العارم من اللاشيء في عيونها وعيون أبي..

أبي الذي تمنيتُ أن يأخذني في حضنه مثلما كان يأخذ أولاد زوجته، حتى جدتي كانت تحبهم أكثر مني، لا بل كانت تحبهم دونا عني..

كانت تقتلني في كل مرة تناديني بها وتقول لي تعالي يا ابنة القاتلة قتلتني بسيوف كلامها هي الأخرى، كانت تُحملني رغم صغر سني عبء أعمال المنزل ومساعدة زوجة أبي.

لم تنبت في ذهني سوى هذه الصورة البشعة المصابة بمتلازمة محقونة بالجفاء لشدة صلابتها، بعيدة كل البعد عن خيوط الشمس التي لم ألمسها إلا في اليوم الذي عدت ورأيتُ أمي..

أمي التي قطعوا أجنحتها قبل أن تستمتع بالطيران ..
أمي التي أذابوا الرصاص فوق أرضها فأنبتت رماداً بدل أن تثمر ...
أمي التي بلعوا صوتها وأخاطوا ثغرها بالحديد كي لا تتحدث ...
أمي التي ألبسوها الفراق والحزن والبعد والجفاء والتشرد ولماذا؟ لأجل من وتحت أي عدل سلبوا حريتها؟
أمي التي واجهت حرب استنزفت كل طاقتها، سلبت أرضها وأصابت كل مدينتها بالخراب ...
وعند انتهاء المعركة وحدها واجهت الحياة ... واجهت نفسها وكانت خائفة من مواجهتي .. من ألا أقبل بها..
فهي لم تعلم أنها وهي تحدثني قد شعرت بنفس شعورها الذي مررتُ بجزء منه ، ولأنني ظُلمتُ معهم مثلما ظُلمتْ وتحملتُ كثيرا دون أن أجدَ ملاذ مما مررتُ به؛ إلا أنني في ذاك اليوم وجدت ملاذي.
أخذتُ أفعل ما قالته لي أمي، انتظرتهم حتى دخلوا إلى غرفة الجلوس ودخلتُ إلى غرفة أبي وفتشت في الخزانة التي كان يضع فيها جميع الأوراق وبحثت عن دفتر العائلة الخاص بي وبأمي فوجدته وخبأته وخرجت سريعاً من الغرفة دون أن يراني أحد ثم دخلت إلى الغرفة التي أنام فيها ..
أوهمتهم أنني أغطُ في نومٍ عميق ..
لم أستطع ليلتها النوم كثيراً، كنتُ قلقةً جداً .. ليس لأني خائفة أن أذهب مع أمي ..

لا ..

بل كنت خائفة أن يراني أحد منهم ويكشف أمري ..

تذكرت أنني لم أكتب ورقةً لهم فأخذتُ من درج خزانتي ورقة وقلم كتبت فيها :

إلى عائلتي التي لم أشعر بالحب في أركانها..

إلى أبي وجدتي وزوجته ..

أكتب لكم اليوم رسالتي الأولى والأخيرة وأُريد أن أعترف لكم فيها أنني لم أشعر يوما معكم بالأمان ..

بل كنت أشعر أن الخوف يشدني إليه وأنا بينكم ..

أن مكاني بينكم غائب، كنت بينكم بنصف حضور لذلك قررت أن يكون غيابي كاملًا، فأنا أكره النصف في كل شيء ..

بل أكره بشدة وجودي معكم، كنت معاقة مصابة بشلل نصفي، جسداً بينكم لكن مشاعري تجاهكم كانت ميتة..

ليس لأني أكرهكم بل لأنكم كرهتموني.. أشعرتموني بثقل روحي بينكم ..

لم يكن يعني لكم الحب شيئًا ..

أنت يا أبي؛ كم مرة كنتُ أراك تحتضن إخوتي بعشق وتكتفي بالنظر إليَّ؟

كنتُ أراك تعانقهم وأحرك يديّ وكأني أحلم أمام يقظةٍ بشعة تفتح عيوني أمام شيء لا أطيقه ..

لم تحاول يوما أن تتحدث معي.. أن تُكلمني، تأخذني في أحضانك ..

هل كانت أحضانك لا تتسع لي؟ أم أن رائحة الود الخارجة من روحي كريهةٌ لهذه الدرجة؟؟

لقد استطعتَ أن تصنع مني أنت وزوجتك وجدتي صورةً مصغرةً لخادمة رغم صغر سني..

نجحتم إلى الآن في كل ما تريدون، ولكن من اللحظة التي سوف تقرؤون فيها رسالتي سأكون قد غادرت عالمكم إلى المكان الأكثر دفئًا من أحضانكم، إلى أمي التي ظلمتموها ..

أمي التي قهرتم روحها وتركتموها تعاني المُر وحدها ..

أمي التي أبعدتموها عني كل هذه السنوات...

سأترككم مع من تحبون وأرحل إلى من أحب ..

ولاتبحثوا عني لأني لن أعود لكم إنني أُريد الرحيل إلى الحياة.

بللت الأسطر بدموعي، كنت أشعر بألم كل حرف سطرته..

لو لم يكن ما كان، لكنا جميعا في ظلِّ أسرةٍ واحدة، لو كانوا عاطفيين في فهم ما بداخلنا لما وصلنا إلى هنا..

طويتُ الورقة ووضعتها تحت وسادتي وبقيتُ متحفظةً على ألا أغط في النوم، لأتمكن من الخروج قبل أن يستيقظ أحد ..

وفي تمام الساعة السابعة من صباح ذاك اليوم نهضتُ من فراشي والخوف يُرعش فؤادي، فتحتُ باب الغرفة بهدوء كي لا يسمع أحد ثم مشيت بخطوات بطيئة ..

خفتُ أن ألتفت خلفي فأجد أحدهم قد كشفني حتى وصلتُ إلى باب المنزل ..

أيضًا حاولتُ شَدَّه بهدوء، نجحت في الخروج من المنزل ..

ولكثرة خوفي تركت باب المنزل مفتوحًا ورحتُ أركضُ كالفارِّ من السجن..

شعرتُ أن قدماي تكادان أن تُصابا بالشلل ..

وصلت إلى المكان الذي اتفقتُ مع أمي لنلتقي فيه فرأيتها تنظرني هناك ..

حضنتها بقوة العالم .. استنشقتها كأي لأول مرة أستنشقها ..

لم نتحدث بشيء كنا نبادل بعضنا ذات الشعور، كادت تخبئني داخل عيونها لشدة حاجتها لي ...

ثم قالت أمي:

- هل شاهدك أحد وأنت تخرجين؟

قلت لها: لا ..لم يلاحظ أحد.

قالت: إذاً دعينا نبتعد من هنا قبل أن يرانا أحد ..

أخذتني معها إلى بيت "فاطمة" ..

تعرفت على "فاطمة" ..

عندما دخلت إلى بيتها قالت أمي :

-إنها "فاطمة" التي حدثتك عنها.

ابتسمتُ وقلت لها:

-سررت برؤيتك، لقد حدثتني عنكِ أمي.

قالت "فاطمة":

-إن أمك تحبك كثيراً، طوال الفترة التي كنا فيها بالسجن لا تتحدث عن شيء سواك، كانت تتمنى لو فقط تراكِ

قلتُ لها: وأنا أيضًا كنت أتمنى رؤيتها، فليس هناك شيء أغلا من لحظة يقضيها المرء مع أمه.

اقتربت أمي مني واحتضنتني ونمت بين ذراعيها ..

لأول مرة يومها كنت قد شعرت بالحنان بعد غياب ..

شعرتُ بالأمان والراحة التي انتظرت كثيرا تذوق حلاوتها ..

تذوقتها في حضن أمي ..

إنني لم أفكر أبداً ماذا تركت خلفي؟، كنت أفكر فقط أنني في حضرت أمي التي انتظرتُ عودتها إلى حياتي مثلما انتظرته قبل.

قالت لي أمي يومها:

- لا نستطيع البقاء هنا، فالمكان الذي نسكن فيه قريب على بيت أبيكِ، وقد يجدونا ويأخذوكِ مني ..

علينا الآن مغادرة المدينة كي لا يتمكنوا من الوصول إلينا ..

كانت أمي على حق، لابد لنا من الابتعاد عن أنظارهم كي لا يُعيدوني إلى سجنهم مرة أخرى.

إنني من اليوم الذي التقيتُ فيه مع أمي ، كانت القوة الكامنة بداخلي تطفو على السطح، لم أكن مكترثة لما سيحل بهم بعد غيابي عن المنزل لأني لم أرتكب معصية، بل إنني ارتكبت طاعة في إرضاء أمي، أمي التي قهروها وألقوا الحروب في روحها الطاهرة ..

لملمنا أغراضنا من بيت "فاطمة" التي كانت حزينة لفراقنا لكنها تشعر بالسرور لأنها رأت أمي تحيا هذه اللحظات المفرحة ..

عانقتنا بشدة وطلبت من أمي أن تزورها إن عادت إلى هنا ..

قالت لها أمي: من المؤكد إن عدت سأزورك وسأرسل لك رسالة عن مكان بيتنا كي تأتي أنتِ إن لم نستطع المجيء نحن.

خرجنا والخوف يهوي بقلوبنا من أن يرونا، حاولنا المضي سريعاً حتى نصل إلى الشارع الأساسي ونأخذ سيارة أجرة لإيصالنا إلى اللاذقية التي تبعد كثيرا عن دمشق، وبذلك لن يتمكنوا من إيجادنا إن قاموا بالبحث عنا.

جلستُ مع أمي في المقعد الخلفي للتاكسي وانطلقنا ..

وضعتُ يدي على كتف أمي ورأسي بين ذراعيها، احتضنتني بقوة حاجتي إليها ..

لم أكن أتوقع يوما أن أخوض مثل هذه التجربة، لو أنهم منحونا فرصة الحياة بسلام لما تجرأنا على أن نكون هنا، نرتدي معطف الهروب ونمضي ..

أتذكر أننا طوال الوقت كنا نلتفت إلى وجوه بعضنا، كأننا نتساءل:

ما الذي أودى بنا إلى هنا؟

ولأي ذنب يتم نفي البعض؟

يتم تحويلهم من أناس لُطفاء طيبين تملأ قلوبهم الرقة والإحساس إلى أناس متهيجين بالحقد .. بالقدرة على الانتقام، فتنطلق منهم الرصاصات دون حرب.

نعم إنها الرصاصات الأولى تبقى آثارها ورماد بارودها عالق في القلب إلى أن يتم تكريره مع الأيام وإعادته إلى رصاصة أخرى تُصوب إلى المكان الذي خرجت منه..

إنها معادلة عادلة لابد لها أن تحدث وتعبث بكيمياء قلوبهم القاسية ..

لم يعد لهم عنوان في حياتي، كانوا عقبة أودّت بطفولتي إلى الجحيم كم ليلة بكيت منهم لفرط الحزن الذي علقوه فوق صدري، أبي كان لا يصدقني في أي شيء أقوله عندما تفعله زوجته بي، كان في كل مرة أقول له شيئًا يقول لي كفى قبل أن أكمل ما أُريد قوله، يتركني أجر أذيال الخيبة من أن أخذ حقي منها، لقد أفسح لها المجال أن تكون أشد قسوةً معي، يحتضن إخوتي وأنا لا، يأخذهم إلى الحدائق ويتركني منهكة في ترتيب البيت مع زوجته وسماع كلامها القارس كالبرد، حتى جدتي كانت تكتفي بالنظر في كل الأمور دون أن تكون طرفًا بها، موقفها محايد جداً .. لم أكن أشعر أنها تُحبني أوتكرهني ..

لم أشهدها تدافع عني يوما عندما يوبخني أبي بل كانت تترك زوجته تضربني أمامها ولا تتحدث معها، زوجته عاقبتني على أتفه الأسباب وبقي عقابها يسفك بي حتى الآن ..

أصابعها بقيت إلى الآن ملتصقة فوق وجهي ممتدة إلى قلبي الذي يغص كلما تذكر قسوتها العارمة واندفاعها اللئيم..

لقد شوهوا طفولتي بامتياز، واستطاعوا أن يأكلوا أجمل لحظات الطفولة ..

الطفولة المسجونة بحضورهم البارد المربك الحاد كالسيف، كنت أشعر معهم بالوحدة ترسو بي على شاطئ البعد حتى تبتلعني الامواج الهائجة ..

لم يكتفوا بتدمير طفولتي في ذكريات اختاروها لتنغرس في عقلي كالصبار ..

بل إنهم حرموني من إكمال دراستي، منعوني من أن أمارس حقي كأي طفلة ..

قبل شهر من من قدوم أمي لتأخذني، رتبت زوجة أبي المكائد لتمنعني من إتمام مراحل الدراسة التي وصلت فيها إلى الشهادة لأنها تعلم أن تحصيلي دائما من المتفوقين بينما أطفالها بالرغم من صغرها إلا أنهم دوما ما كانوا يحصلون على مراتب متدنية.

لقد أعمى الحقد قلبها وخلعت عباءة الإنسانية لتتعرى أمامي وتتهمني بأنها وهي عائدة من بيت أهلها رأتني في حين عودتي من المدرسة أتحدث مع إحدى الطلاب الشباب.

أن تخلو نفسك من الرحمة هذا يعني أنكِ خرجت من مجتمع الإنسان، هذا يعني أنكِ من مجتمع حيواني بحت، وحدهم الحيوانات يُزهقون أروح بعضهم، إذًا نحن من نكون أن اتصفنا بصفات حيوانية؟ حتما لا نكون إلا حيوانات بشرية وهنا تكمن الهالكة!!

الإنسان له وجه واحد لكنه يستطيع أن يخفي خلفه ألف حيوان، قادر أن يكون ذئبًا أو حية أو ثعلبًا دون أن نستطيع معرفة ذلك، دون أن نملك حاسة الشم التي تمتلكها الكلاب لنشتم رائحة الغدر والخيانة عن بعد.

إذاً ممن يكون الخوف هنا؟ من المجتمع الحيواني أم الإنساني؟، الخوف كله يكون من الإنسان.

هذا ما جعلني أقف دقيقة رعب وذهول من عالم الإنسان.

ماذا تراه فعل أبي إلا أنه منعني من إكمال دراستي ومنعني من مغادرة المنزل، حتى أنه قال لي سأزوجك ما أن تصبحي في السادسة عشر من عمرك ..

كم كنت خائفة من تهديده هذا، لم يكن يتبقى سوى سنة ونصف ويصبح عمري ستة عشر ..

كنت أخاف أن يمضي الوقت وأصبح بهذا العمر وينفذ أبي تهديده فأنا لم أكن أرغب بالزواج، كان آخر همي تلك اللحظة، كنت أخاف منه بشدة، لأن المجتمع الذكوري بعد الذي رأيته أتوقع أنه أشد قسوة مما أتوقع ..

وصلتُ إلى هذا الخوف بعد ما عانيته منهم، بعد الذي أذاقوني إياه من ظلم، تركوني أبحث عن الضوء في عباءة الليل.

أيقظتني أمي قائلة:

- انهضي ياحبيبتي، لقد وصلنا.

نظرتُ إليها نظرة امتنان على كلمة حبيبتي..

آه كم كنت أحتاج إليها!!

قلتُ لها : إلى أين سنذهب الآن؟

قالت لي : لا أدري ولكن لاتقلقي.

سننام اليوم في فندق وغداً نذهب إلى المدينة لنبحث عن بيت صغير نستأجره ومن ثم سوف أبحث لك عن معهد لتدرسي وتحصلين على الشهادة وتكملي تعليمك.

قلت لها :حقا أمي ؟؟

بالله عليكِ هل حقا ما سمعته ؟؟

هل ستسمحين لي بذلك؟؟

قالت لي: ولمَ لا؟

إنني سأفعل كل ما تريدينه وأهم شيء هو عودتك إلى التعليم، لن أجعل شيئًا يقف في طريقك .. سأكون سيفاً في ظهرك

غمرتُها بقوة، إحساسها بداخلي بث روح الحياة فيَ من جديد

يالله كم كان شعورا صادقا نابعا من فلذة كبدها

أمسكت يدها وأردت أن أحمل الحقيبة عنها لكنها لم تسمح لي وقالت:

- لا تتعبي نفسك ..أنا أحملها عنك ..أنا هنا لكي أُريحك مما مررتِ به، سأعوضك عن كل شيء وسترين ذلك.

كانت ليلة أنيسة في الفندق ، شعرتُ بالطمأنينة في وجود أمي، نمت على صوت أمي واستيقظتُ على قبلةٍ منها وابتسامةٍ جعلتني أُبحر في رحاب العالم الذي يتسع من حضنها..

أمام قلبها الطيب شعرتُ بالحب يتدفق في روحي ..

شعرتُ بالزهور تتسلل إليَّ بدفء حريري ..

قالت لي يومها:

-أتصدقين؟

إنني الآن لا أصدق أنني استطعت أن آخذك لنعيش معًا..

ثمانِ سنوات وأنا أجر الوقت لأصل إليك، وفي كل مرةٍ كنتُ أخافُ أن أفشل بذلك أو أن أصل وتقابليني بالرفض.

قلت لها:

-لا يأمي ..لا تعلمي أنتِ كم كنتُ محتاجة أليكِ

إنني ظُلمت مثلك .. ابتعادك عني كان أسوأ عقاب عاقبوني به..

إنني إلى الآن أتذكر اللحظة التي أبعدوك فيها عني ..

طلبتك كثيرا يومها، بكيتُ بشدة حاجة طفلةٍ في السادسة من عمرها لأمها ..

كنتُ كلما قلت لأبي أُريد أمي أبرحني ضربا، كان يقول لي:

-لا أم لك بعد الآن.

لا أودّ أن سماعك تنادينها أو تقولي لي أنك تُريدينها، "ملك" هي أمك من اليوم وصاعدًا، وإن سمعتك تقولين أنك تُريدينها سوف لن أرحمك ..

بقيت حاجتي إليكِ قلبية، لم أستطع منذ ذاك الحين أن أناديكِ على الملأ، اكتفيتُ بالتحدث لروحي عنك عن رحمتك لي في صغري..
صدقيني إني كنت أشعر بك ..
ذبذات كلامك بقيت تشحن روحي بالصبر.
قالت أمي بعدها : ياحبيبتي أنتِ ..
حتى أنتِ لم تسلمي من شرور قلوبهم ..
لا عليكِ يابنتي من الآن وصاعدًا لن أسمح لأحد أن يخدش إحساسك أو يفكر بأذيتك ..
اليوم بعد أن نتناول الفطور سنذهب لنبحث عن منزل وبعدها سأبحث عن عمل لي ومعهد لتدرسي به الإعدادية.
انطلقنا إلى المدينة لنبحث عن منزل بقينا منذ الصباح حتى المساء نمشي بين الأزقة والحارات لنجد منزلًا ولكن لم نجد.
لشدة تعبنا جلست أمي على كرسي لأحد البقاليات لترتاح قليل وبينما نحن جالسين خرج صاحب البقالية إلينا ثم سأل أمي أن كانت تحتاج إلى مساعدة.
قالت له أمي: إنني أبحث عن غرفة لأستأجرها أنا وابنتي
قال الرجل: لقد وصلتِ إلى طلبك.

إنني أملك منزلًا لكنه صغير، عبارة عن غرفة وصالون صغير ومعه مطبخ وحمام.

قالت أمي :نعم هذا طلبي، لا أُريد أكثر من ذلك.

سألني: هل زوجك معك ؟؟

ارتبكت قليلا ثم قالت له : إن زوجي مسافر وأنا وابنتي وحدنا

مضينا مع الرجل لنرى المنزل، إنه منزل لطيف هادئ يشبه ما نحن فيه، ونحن لانريد أكثر من ذلك ..

قالت له أمي: نعم إني موافقة على استئجار المنزل، ولكن هل ستأخذ مني الكثير من المال؟

قال: لا تخافي.. لن أطلب منك الكثير مقابل إيجار المنزل، فيبدو أنكما أناسٌ طيبون وهذا ثمنه أغلى من المال الذي سأحصل عليه

قالت له أمي:

-شكراً لك على لطفك معنا، وأرجو الله أن يسخر لك الطيبين في حياتك كما سخرك لنا.

ثم قالت له سوف نذهب لنأتي بأغراضنا ونعود

قال لأمي لا عليكِ، ولكن خذي المفتاح كي تتمكني من العودة مباشرة إلى المنزل.

شكرته أمي ومضينا إلى الفندق لنجلب أغراضنا ونعود إلى منزلنا الجديد، وعند عودتنا أرادت أمي تنظيف المنزل والفراش

أتذكر أنني أردت يومها أن أساعدها لكنها لم تسمح لي، قالت:

- دعكِ من ذلك كله وابقي جالسة، إنني أستطيع أن أفعل ذلك بمفردي..

أول مرة يشعر بي أحدهم، انتابني شعور أن أجعلها تترك كل شي بيدها وتكتفي بالجلوس قربي ..

في ذلك اليوم لم أكن أمتلك الثياب، كانت ثيابي التي أرتديها متسخةً للغاية .. قالت أمي اذهبي واستحمي، سأُلبسك شيئًا من ثيابي.

أعلم أنه سيكون فضفاضاً لكن غداً سأجلب لك كل ما تحتاجينه.

***

بعد أن استحممت وارتديتُ ثيابها، استلقيتُ على الفراش وريح أمي ترافقني، كلما شهقت وزفرت أشعر بروحها تتسلل إليَّ أكثر حتى رحتُ في نوم عميق.

استيقظتُ في اليوم التالي وأمي قد أعدت لي الفطور وهي تجلس تنظرني كي أستيقظ..

هي لم تحاول إيقاظي حتى، بل كانت تكتفي بانتظاري..

ما أشد لطفك يا أمي، أخجلني حنانها تجاهي، كان لابد أن أرد لها الجميل الذي قدمته لي..

تناولنا الفطور وشربنا الشاي بسلام رائع، حقا إنني كنت أشعر أنني أملك كنزاً وليس أي كنز، كنز أثمن من الذهب والفضة، إنها أمي، القلب الملائكي الذي احتواني بكل ما فيها ..

وبينما نحن جالسين قالت لي أمي يجب ألا تخبري أحد عن قصتنا وإلا سيُفتضح أمرنا وبذلك ربما أُحرم منك ثانية!!

وكلانا لايُريد ذلك.

-قلت لها نعم يا أمي إنني لن أبوح لهم بأي شيء، سأقول لهم أن أبي مسافر وأمي لا تملك عائلة، فأبوها وأمها ميتان.

قالت لي أمي: إنني لا أحب الكذب لكنني مُضطرة لقول ذلك كي أحميكِ منهم وأتمكن من إيصالك إلى ما تريدينه دون حدوث مشاكل لنا.

قلتُ لها : لا عليكِ يا أمي، سوف أفعل ما تريدينه لكي نبقى معًا

ثم نهضتْ أمي من مكانها وقالت لي:

-علي منذ هذه اللحظة المضي والبحث عن عمل، فالنقود التي بحوذتنا قاربت على الانتهاء وهذا ليس من صالحنا، هناك من نفقات علينا تسديدها.

استمرت أمي عدة أيام تبحث عن عمل كي نستطيع أن نعيش منه وكي تسدد منه نفقات البيت ومستلزمات معهد الإعدادية التي سجلتني به.

لم يكن سهلاً إيجاد عمل في مكان لانعرف به أحد، لاحظت وقتها الحزن يلوي ذراع أمي، رأيتها عدة مرات تبكي وعندما كنتُ أقترب منها لأسألها عن سبب بكائها كانت تمسح دموعها كي لا أراها وتقول لي :

- لاتهتمي .. ليس هناك ما يزعجني، كل ما في الأمر أني أشعر بثقل في رأسي.

كنت أُحاول احتضانها كي لا تشعر بالحزن والألم الذي كان يعتصرها لقد وصلت إلى مرحلة اليأس من أن تجد عملًا..

خافت كثيراً أن تنتهي النقود التي بحوزتها قبل أن تجد عملًا، ولكن بعد شهر من البحث حصلت على فرصة عمل مرة أُخرى كخياطة في معمل قريب من البيت الذي سكناه.

فرحت كثيراً أمي وبدأت تعمل ليل نهار لأجلي ..

كنت أذهب إلى المعهد في الصباح حتى الظهيرة وأعود قبلها

أجدها منتهية من ترتيب كل شيء، حتى أنها كانت تُجهز لي الطعام وتكتب لي على ورقة كلي ياحبيبتي هنيئا مريئا، واستريحي قليلا ثم ابدأي دراستك.

لقد خبأت كل تلك الأوراق بحوذتي لأنها كانت من أمي..

لأنها خرجت من صدق محبتها لي .. من صدق تضحيتها من أجلي لكي تمنحني الحب والعطف اللذان افتقدتهما دونها ..

ليس هذا فحسب، بل ضحت براحتها كي تعمل وأعود أنا إلى مقاعد الدراسة ..

الدراسة التي كنتُ أعشقها ..

عدت إليها وأنا جائعة لكل ورقة بها وكنت أُريد أن أعتنقها بشدة كي أعبر لأمي عن امتناني وشكري لها.

كان يجب أن أحقق حلم أمي بأن أكون إنسانة ناجحة في المستقبل، لذلك قررت أن أبذل كل جهدي لأصل إلى ما تريد وبذلك أكون أنا وضِعتُ في مكاني المناسب بين الكتب.

أجمل مكان أشعر فيه بالسكينة والحب ..
أشعر فيه أني أغوص في بحار العالم وأستطيع من خلاله أن أخلق أبجدية لم تُخلق بعد.
إنني أحب أن أتنفس الكتب، أن أكون صفحة تتسطر عليها الحروف والكلمات والجمل ..
إنني أحب أن أتسكع في شوارع السطور وأترجم ما بين الحواشي..
لطالما كنت أشعر بهذا الشعور وأنا عند أبي، لقد طلبت منه كثيراً أن يشتري لي القصص ..
لكن كان يَعدني ويخلف وعده لي، يقول لي سوف أجلب لك وينسى ذلك أوربما كان يتناسى.
أمي من أول راتب حصلتْ عليه من عملها اشترتْ لي طاولة وكرسيًا ووضعتهما أمام سريري وزينتهما بالأقلام والأوراق والكتب، لقد غمرتني الفرحة وحضنتني الابتسامات الدافئة ا بهذه الهدية.
إنها حاولت جاهدة أن تُهيئ لي الظروف لكي أتعلم، لقد أزهقت روحها في العمل من أجلي ..
ضحت بما تبقى لها من عمرها لأصل إلى القمة، وكانت لا تستهين بقدراتي بل كانت تمنحني الشجاعة والثقة بأنني قادرة على الوصول.
كانت تقول:
- أنتِ تستطيعين، أنتِ قادرة، أنتِ لديك ذكاءً وفطنة تستطيعين استغلالهم.

لقد شحنتي بالحب والإيجابية والكلام الذي كنتُ أتوق إلى سماعه، لقد استطاعت أن تعيد هيكلة القوة في قلبي من جديد وكأني خُلقتُ من جديد بين يديها..

خلصتني بالحب من الضعف، سلّحتني بالشجاعة التي كنت في أمس الحاجة لها ..

استطاعت أن تعلمني كيف أرفض ما لا أُريده، تمكنت من أن تمسك يدي لتسحبني إلى الحلم ..

إنها داوت لي أجنحتي التي تكسرت وأعادتها لي حتى أستطيع التحليق من جديد ..

حلقتُ وحلمتُ وتربعتُ في رحاب العالم الواسع ..

حققتُ كل ما أُريد، عدت بفضلها الطالبة المتفوقة في كل المراحل، درست الإعدادية وكنت من الحاصلين على الأولى وتم تكريمي ..

رأيت يومها الفرحة تلمع في عيون أمي..

حضنتي كالمتعطش لهذه اللحظة ..

حملتني ودارت بي كأنها هي التي نجحت، لقد بكت لشدة فرحها بي..

كانت تحرم نفسها من ملذات الحياة لأجلي، كانت تهبني كل النقود التي تحصل عليها في نهاية الشهر من عملها، فتقوم بشراء الملابس وما أحتاجه لكيلا تُشعرني بالحرمان من أي شيء ..

أكملتْ معي المسير بعزمٍ أكبر حتى أكملت الثانوية، أيضًا فيها كنت قد حصلت على مجموع عالي يُدخلني أي مجال أُريده.

لقد فرحتُ يومها لأني وصلت إلى هنا، كانت السعادة تغمر كل تفاصيلي، تُنسيني كل الأوجاع التي كانت تعتريني والتي احتلت القسم الكبير من طفولتي وسلبت مني اللحظات الوردية ..
في وقتها كان لابد لي أن أسأل أمي في أي مجال تحلم أن أدخل، لأنها التي وقفت بجانبي وتستحق أن أفعل ما تريد ..
كنت أودّ أن أرد الجميل الذي قدمتْه لي، لكن عندما فتحت معها الموضوع وقلت لها بأي مجال تحبين أن أدخل قالت لي:
- أتسأليني؟
قلت لها: نعم.
قالت لي: ولمَ تسأليني وأنت التي نجحتِ وحصَّلتِ؟
كيف تريدين أن أجني ثمارك وأنتِ التي تعبتِ؟
إنه من واجبي أن أقف معك، هذا ليس معروفًا أسديته لك، بل واجب، فأنتِ فلذة كبدي، ومن المفترض أن أفعل ذلك لأجلك ..
فبدل أن توجهي السؤال لي، إسالي رغبتك أنت، فالحلم الذي كنت تريدين تحقيقه قد حصل ..
ها هي الفرصة أمامك تستطيعين استغلالها وتوجيهها إلى حلمك..

كلامها بقي عالقًا بأبسط خلية في دماغي، أثابني روح الأم الملائكية التي تسكن فيها ..
غزلتُها بنظراتي لها، تمنيت أن أصرخ ملء العالم .. أحبك

نعم أحبها وكيف لا وهي خلاصي؟ ومن حسن حظي أنها كانت أمي.
بعد أن قالت لي ذلك قررت أن أفعل رغبتها وأدخل المجال الذي أتمناه وبالفعل دخلت مجال الطب لأني كنت في صغري أحلم بذلك ولابد لي أن أحلق في حلمي.
ما الذي يمنعني من ذلك إن كنت أملك الأجنحة لأطير ؟
اليوم أنا لست تلك الضعيفة ولا المسلوبة والمظلومة، إنني خُلقت من ضلع قوي وليس قاصر..
أمي كانت الضلع القوي الذي حمَلني إلى الحياة، أمي هي القوة التي بفضلها أصبحت طالبة في الطب..
لقد كبرتُ لأصبح طالبةَ طب وكبرتْ هي لأجلي، هرمت لأكون، حاربتْ ضعفها لكي أثبت أنني أنا ..
عملتْ في الليل والنهار لكي تُأمن لي ثمن الكتب والأشياء التي أحتاجها في الكلية ..
لم تسمح لي حتى بأن أساعدها وأعمل معها كي أخفف عنها عبء العمل، بل إنها رفضت بشدة ذلك الأمر، ورغم إنني حاولت إقناعها لفترة طويلة لكنها لم تكن تقتنع، كل ما كان يهمها أن أن أنهل من بحر العلم.
ظلتْ واقفة بجانبي إلى أن تخرجتُ من كلية الطب وأصبحت طبيبة للأمراض العامة، قادرة على أن أنطلق إلى مجال الطب..
في البداية كان الأمرُ صعبًا، لأن ذلك كان يحتاج إلى مال كي أفتح عيادة ونحن لانملك المال لذلك.

لكن لم يكن هذا عائقًا في وجهي، بل إني تجاهلت هذا الشيء، وفكرت أن أبحث عن عمل في إحدى المستشفيات وبعدها أستطيع إدخار المال وأقوم باستئجار منزل صغير في نفس الحي الذي أسكن فيه وتحويله إلى عيادة وبذلك أكون قد اكتسبت خبرة.

أخبرتُ أمي بما أفكر فيه وشجعتني على ذلك وقامت بالبحث معي عن مستشفى كي أعمل به.

بعد فترة ليست بالطويلة استطعتُ أن أجد عملًا في مشفى خاص.

أتذكر أنني عُدت في اليوم الذي حصلت فيه على العمل مفعمةً بقبلات النصر والقوة ..

كنت أشعر أن فسحات الطموح بدأت في الإتساع ..

لم أصدق أن حلمي عاش معي، استطاع أن يكبر في صدري حتى تحول إلى حقيقة مرئية ..

أستطيع رؤيتها بكلتا عيني ..

عندما دخلت المشفى وباشرت العمل كانت كلمة دكتورة "نور" أول كلمة أرسلت لي ذبذبات الحياة ، أوصلتني إلى قمة فرحي.

ليس هناك أروع من أن تلامس حلمك، أن تتحول إلى شمس تُضيء معالم روحك التي كانت أكثر حاجة منك إلى الحلم.

بعدة حوالي ستة أشهر من عملي في المشفى استطعتُ أن أدخر المال لكي أقوم باستئجار منزل في الحي الذي نعيش فيه وأفتحه كعيادة بذلك أكون قد أتممت كل مراحلي التي كنت أعشق الوصول إليها

لقد فاض الفرح في عيون أمي لأني سأفتح عيادة في الحي ..
من طيبة قلبها الطاهر قالت لي أُريد أن أقول لك شيء:
قلتُ لها قولي ما تريدين يا أمي.
قالت حاولي أن تكوني طيبة مع أهل الحي، حاولي أن تكون كشفيتك رخيصة، ومن يأتيك ولا يملك المال أعطيه دواء دون مقابل فالطب سبيل لرحمة الإنسان ..

ماذا عساني أن أقول لها وهي قد بلغت في الإحساس ذروته؟
قلت لها يومها:
- لا تخافي يا أمي، إني اكتسبت الطيبة منك، ومايجوب في ذهنك حاضرٌ في تفكيري، إن المال هو آخر شيء أفكر فيه، فالإنسانية أثمن بكثير من قطع النقود.
عظيم جداً أن تملك أمًّا مثل أمي، امرأة ليست كباقي النساء، كان لها أثر كبير بكل خطوة خطوتها ..
واليوم أنا بفضلها هنا أتسكع في أرجاء السطور بقوة، أتلاحم مع الحروف وأجلس بين الكلمات لأسمع نبضها وألفها بأصابعي كي أُخفف من حزنها ..
أتحدث مع الجروح التي دخلت حالة حزن مديد وأخرجها من حبرها إلى بر الكلام ..
وأستعد لاختلاس النظر إلى جمال حضورها الفاتن، ونظرتها الساحرة.

نَهضت أمي في منتصف الساعة الثانية والنصف ورأتني منهكة بين الأوراق والأقلام ..
متعجبةً مما يجعلني متيقظة إلى هذا الوقت، حدقت فيَّ واقتربت مني وسألتني عن السبب الذي لم يجعلني أنم.
قلت لها أنتِ.. أنتِ التي جعلتني لا أنام.
-أنا؟ ولمَ؟ ماعلاقتي باستيقاظك؟
قلت لها: سأخبرك سراً
قالت مندهشة وهي تمسكني بكلتا يديها:
-أخبريني.. هل هناك شيء مخيف ؟
قلت لها : لا.. لا تخافي إن السر في جعبتي بغاية الجمال ..
قالت: أخبريني إذًا ما هو؟
قلت لها إنني أعشق الكتابة منذ زمن بعيد ولم تَسنح لي الفرصة بأن أُحقق تلك الرغبة القابعة في جوف قلبي، ولكن بعد القوة والثقة التي وصلتُ إليها قررت أن أبدأ في تحقيقي حلمي بأن أُصبح كاتبة.
أنت تقولين لي دائما أستطيع، لهذا لم يكن هناك شعور بداخلي أنه من المحتمل أن أفشل ..ثم ماذا لوفشلت؟ لن يكون الأمر قاس..
المهم أنني أُحاول .. وبهذا أكون قد كسبت شرف المحاولة.
أليس صحيحًا يا أمي؟
-نعم يا صغيرتي.. هذا هو الصح بكل لواحظه.

إن الكلام يا ابنتي يهرب مني، لا أدري ماذا أقوله لك، لقد أعطيتني الفرح، لقد منحتني فرصة الحياة مرتين ..

إنني افتخر أنك ابنتي ..

أشعر بالاكتفاء العشقي بك ..

أنت معشوقتي الصغيرة ..

أنتِ طفلتي التي لن تكبر مهما كبرت، سيبقى إحساسي تجاهك واحد لن يتغير ..

لقد عوضتني عن كل الألم والحزن الذي حلَّ بي، لقد قلبتِ الألم إلى أمل، إنكِ مفتاح الحياة والمصباح الذي أسلك به سبل النجاة ..

لقد أصبح لي ظهرا أتكئُ عليه وحضناً أحتمي به.

مارأيك يا ابنتي أن نشرب القهوة؟ فقد هرب النوم من عيوني لسعادتي بهذا؟ كما أنني أُريد معرفه ما القصة التي تدور حولها أحداث الرواية التي تكتبينها.

-كما تريدين يا أمي .. سوف أخبرك عن روايتي...

إن روايتي التي أكتبها تتحدث عنك، عن الظلم الذي أصابتنا سهامه عن الجهاد الذي بذللتِه لكي نكون هنا، نحن الضعيفات، الضلوع القاصرة التي حدثوكِ عنها ..استطعنا أن نكون ضلوعًا قوية دون الحاجة إلى أحد. وماذا كنا نريد لنصل إلى هنا؟

كنا كلانا متعطش للإحساس كلانا يحتاج إلى يدٍ تشدُّ عضدَه كي يستقيم.

كانوا قادرين على أن يمنحونا إياها لو أنهم تخلّوا عن تفكيرهم، عن جهلهم، عن الإعاقة التي تستحوذ على أرواحهم ..

الآن أنا في السابعة والعشرين من عمري ولا أستطيع أن أنسى الذي حصل معي ..

في كل لحظة تمر كان شريط الماضي يعبث باستقلال روحي ..

كانت تأتيني زوجة أبي في الحلم لتحاول قتلي، ظلت عالقة في ذاكرتي، عكرت صفو لحظاتي ..

لم أنسَها.. لم أنسَ عصاها التي كانت تُبرحني ضربا بها، لم أنسَ أبي الذي كنتُ أستنجده كي يُخلصني منها فيقول لي تحتاجين إلى ذلك كي تتربي ..على ماذا أتربى؟ وماذا فعلتُ وأنا ابنة العاشرة من عمري كي أحتاج لأن أُضرب؟

عجلةُ الوقت كانت تسافر بي إليهم .. تحاول في كل مرة توريطي في فتح دفاتر الماضي والعبث بالذكريات الحالكة التي حَفرت ألمها بعمق بئر حتى كدت أغرق فيه ..

بحثتُ كثيرا بحدسي وحواسي عن سبيلٍ للخلاص من هذا الألم الذي كان ينتابني بين الحين والآخر ..

عانيت الوقوف حائرة في إيجاد منطق يُخلصني من شعوري هذا إلى أن جاء اليوم الذي جلست فيه بين الأقلام والأوراق التي استدرجتني لأكون جزء منها.. لأبحر وأسافر في أطلسها متخلصة مما يطويه ذاك الألم في نفسي ..

تفاجأت أمي مما قلته لها.

اقتربت مني واحتضنتني وبكيت بين ذراعيها من كل قلبي، ثم قالت لي:

-لماذا لم تخبريني عن هذا الألم الذي كان يُكابدك؟

- لأنني لم أكن أُريد أن يعود الحزن لكي يقاسمك رغيف أيامك، كنت أُحاول جاهدةً أن أجد الابتسامة تنتصر على شفتيك ..

كان لكلماتي وقع كبير على مسمعها، غمرتها الفرحة وبقيت عالقة في أحضانها ..

وبعد صمت دام دقائق قلت لها شيئًا لم تتوقع أن تسمعه مني:

-أتدرين يا أمي ؟

قالت: ماذا؟

قلت: هناك فصل في روايتي يحتاج مني لأن أفعل شيئًا كي يكتمل، ولكن أخاف من ردة فعلك.

- أنا؟

- نعم

- ما هو الشيء الذي تخافين قوله لي؟، ثم هذه المرة الأولى التي تذكرين بها الخوف مني أمامي، منذ أن التقينا ونحن كالأصدقاء

كنت دوما أُحاول أن تكون علاقتنا قوية يسودها الحب ونتحدث مع بعضنا دون خوف.

- لا يا أمي، لكن الأمر يتعلق بأبي وعائلته

-ماذا؟.... أبوكِ؟ وماعلاقته بالرواية؟ إنني لم أفهم ما تتحدثين عنه، قول لي ماذا تريدين بالضبط؟

واصلتُ حديثي وأنا أُحاول ألا أنظر إليها، كي لا أرى الارتباك يشوش صورتها..قلت بصوت مرتجف:

- أُريد أن أرى أبي.

صرخت أمي بأعلى صوتها:

-ماذا ؟؟ ماذا تقولين ؟؟ هل أصابك الجنون ؟؟

-لا يا أمي .. أُريد أن أواجه أبي وزوجته ..أُريد أن يعلما أين وصلت أنا .. أُريد أن يعلما أنكِ وراء نجاحي، وأنكِ السبب في القوة التي جعلتني أفكر بأن أواجههم.

صدقيني يأمي أنت أعظم من في الوجود، يجب أن يعلموا أنني لولا وجودك ما كنت .. لكنت قد بقيت تحت رحمتهم، وربما كان أبي نفذ تهديده وزوجني عندما بلغت الخامسة عشر من عمري وأمضيت عمري بينهم مسلوبة ساقطة في مزاجهم السيء ..

ثم إنهم لم يفارقوني، بقي ظلمهم يعارك أيامي ويستفز شعوري بشراسة بالغة ..

يكتبهم في ليلي ويمحيهم في نهاري، هنا في قلبي منفىً يضعني فيه كلما هبت رياح الذكرى ..

اعتقدت أنه مع مرور الأيام سأنسى كل شيء يذكرني بهم لكن لا يا أمي ..

كان اعتقادي خاطئًا بامتياز ..

نَظرتْ إليَّ والدمعة تشعل فتيل البكاء في عيونها وقالت لي :

-لكن يا ابنتي أخاف أن أخسرك ..أخاف أن أفتقدك مرة أُخرى.. يلتهب الموت في قلبي إن أخذوك مني بعد الذي عشناه معًا.. إنني حتمًا سوف أفارق الحياة إن أبعدوك عني أو حلَّ بك مكروهًا.

قلتُ لها:

-لا يا أمي لاتخافي ..إنني لن أفارقك هذا شيء محال. أنت قطعة من قلبي كيف أفارقك؟

إنني بالغة وراشدة، أستطيع أن أقرر أين أذهب ثم إنني لن أذهب وحدي سوف آخذك معي لنواجههم سويا.. لنريهم من نكون ومن تكوني أنت .. لاتخافي يا أمي ..

كنتُ قد شددتُ عضدي بك، واليوم أرجوكِ شدي عضدك بي وثقي أنهم لن يحرمونا من بعضنا.. لا أُريد أن يبقى الانجاز العظيم الذي فعلته معي متخفيا ..

أُريد أن يظهر على الملأ، يجب أن يعلموا كلَّ شيء، إنني سوف أظلمك إن بقيت صامتة وتابعت الحياة بصمت، ألم تعلميني أن أكون قوية؟ وأنا اليوم قوية بك ولك؟

كما أن الشهادة التي وصلتِ إليها أنتِ أكثر أهمية من الدكتورة التي حصلتُ عليه .. فكيف لي أن أحملها لو لا أنك كنت السبب وراء ذلك؟

اكتفتْ أمي بالصمت، لم تدرِ حينها ما تقول لي، شَعرتُ بالحيرة تأكل قلبها. لقد تألمتُ كثيراً لشعور أمي لحزنها تجاه هذا الأمر، شعرتُ أني كنتُ قاسية معها حين حدثتها بما يجوب في داخلي.

لكن كنت أبحث لها عن صفحات أخلد فيها انتصاراتها وقوتها وجبروتها أمام الحياة، كنتُ أعشق أن أعود لكي أقدم لهم أمي.

أمي الصدمة التي لن ينسونها أبداً وأنا على يقين أنهم سوف يُصابون بالذهول، إن علموا الذي فَعلته أمي لأكون هنا.

تركتني، أمي في مكاني وعادت لتخلد للنوم لكنني مضيتُ خلفها؛ قلت لها أرجوكِ لاتنامي وأنت منزعجة مني أو تشعرين بالأسف تجاهي، إنني أعتذر لك من كل قلبي ..

كل ما كنت أُريد فعله هو أن تكوني قوية وتظهري لهم

فأنتِ لم تفعلي العار. لم تكوني مجرمة ..

كنتِ المنقذ لي منهم..

كنتِ الطائر الذي حملني إلى حيث أُريد ..

هل أنتِ مُستخفة بما فعلته من أجلي، كان إنجاز سأقدسه إلى اليوم الذي يضعوني فيه تحت التراب، وما أحب التراب إن كان من تحت قدميكِ..

قبَّلتُ يدها وجبينها وقلت لها نامي وانسي الأمر إن كانت هذه رغبتك .. ما يهمني هو أنت فحسب، وأما الباقي فهم ثانويون بالنسبة لي.

قالت: لاعليكِ. اذهبي واخلدي للنوم فقد تأخر الوقت وعليكِ أن تنامي إنني لا أحمل في قلبي لك سوى الحب .. الحب كله لك.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت وأحضرت القهوة لأمي كي نشربها سوياً .. كانت طوال الوقت تنظر إليّ وتبتسم ..

وأمام صمتي لم تباشر أمي لتقول لي عن سر ابتسامتها ..

نهضت بعد أن شربت القهوة ولملمت أوراق الرواية التي كنت أُريد أن أكمل الفصل الأخير بها ووضعتها في حقيبة لي كي أركنها فوق الخزانة. دُهشت أمي مما فعلته.

وسألتني بتعجب: ما الذي يجعلك تخبئين روايتك في العتمة؟

ألا تودين إكمالها ونشرها؟

قلت لأمي وأنا أحدق بشدة في عيونها:

-أنا لا أُريد أن تنتهي روايتي دون أن تكوني قد انتصرتِ في مواجهتك لهم .. دون أن تكوني الحواس الخمسة لها .. ثم كيف لي أن أفكر في نشرها والصمتُ لازال عالقًا بها؟

إن كل ما ينتابني من شعور هو أن أخلدك، لأنك بطلة تستحق أن تُذكر وعليهم أن يعلموا ذلك..

إن التاريخ لم يُكتب إلا ليمجد العظماء والأبطال الذين دافعوا عن أوطانهم بكل ما ملكوا من قوة ..

وأنت عظيمة استطعت أن تواجهي العالم بأسره لتقفي إلى جانبي وتصنعي مني بطلة بكل ما تملكي من حب ..

تنهدت أمي وهي تبتسم ثم قالت لي:

-أتعلمين يانور، إن في داخلي ذات الشعور الذي تتحدثين عنه، أتوق لأواجههم جميعاً كي يعلموا ماذا قدمت لك وماذا قدموا هم لك، لكني أعاني الخوف من غضبهم عليّ، كل الذي يمنعني هو الخوف منهم عليكِ وعليّ.

- لمَ الخوف يا أمي؟ كل ما عليك هو الفخر بما فعلته.

- لا أدري يانور .. ربما لأنني دوما كنت أفضل الهروب على مواجة المجتمع الذي كنت أحيا به. وكيف سأقف بينهم بعد هذه السنوات من الهروب الذي ما رسته منذ صغري خوفاً من التصدي والمواجهة؟

- هنا تكمن القوة يأمي، أن نبقى فارين يعني أننا ضعفاء، إننا سنبقى فارين بالخوف، بل إن الخوف ذاته سينتصر علينا ويسكن فينا لنصبح هالكين فيه دون أن نشعر. ولكن ماذا لو قُدم لك خنجر وتم وضع الخوف أمامك؟ ألا تسفكينه؟

ألا تقطعين كل أوردته لتتخلصي منه؟

ماذا لو كان الخنجر هو المواجهة دون الإنصات لما تبقى منه فيكِ؟

وبدل أن نساعدهم في تزوير صورنا بخيالاتهم الشاحبة لابد أن نقدم لهم الصور الحقيقية التي نحن عليها، يستطعيون أن يأتوا إلى هنا ويسألوا الجيران الذين هم حولنا عن السمعة التي نمتلكها .. هم أخبار الناس باحترامنا وشدة تهذيبنا، فكلهم يهنئوكِ بي ويمدحون تربيتك لي ..

أليس هذا بدليلٍ كافٍ على برائتنا مما قد يجوب في أذهانهم؟
إنني لا أُحاول اقناعك من أجل روايتي، لا.. فلتسقط كل كلماتي في ظلمة البحر، ولتجف كل أقلامي وتنتفي كل كلماتي أمام أن يعلموا من أنت ..
قالت لي بعدها:
- أنتِ على حق يا "نور"، لابد أن أواجه الخوف كي أتخلص منه للأبد ..
إنني لم أنم ليلة البارحة وأنا أفكر ..
كنت في حيرة من أمري ولكن بعد هذه اللحظة لن أحتار ..
سوف نذهب معا إليهم، نداهم حياتهم التي غبنا عنها لأعوام ونقول لهم ماذا استطعنا أن نفعل .. لابد أن يحصل ذلك يانور ..
إنني فخورة بك لأنك تمتلكين هذه الشجاعة ..
إنني لن أخاف عليكِ بعد هذا اليوم .. لقد اكتشفت مدى صلابة القوة التي فيكِ .. وسوف أرافقك حيث تريدين ..
لفرط فرحي قبلتُ يديها وقدميها، إن الفرحة غمرتني لأجلها ..
قالت لي أمي:
الآن عليك أن تُعيدي أوراق الرواية لتكمليها.. إنني أتشوق لقراءتها كاملة .. أُريد أن أفتخر أمام نفسي أن ابنتي أصبحت طبيبة وكاتبة.
قلت لها: وأنا أفتخر أنك أمي
سألتها عن اليوم الذي سوف نعود فيه إلى دمشق فقالت لي إن أردتِ نستطيع أن نذهب غدا، فقلت لها سوف آخذ من المستشفى إجازة ونذهب غداً.

قالت: إذًا سوف أجهز الحقيبة وأضع بها الحاجات اللازمة.
ذهبت إلى عملي وأنا في ذروة الحماس لأن يأتي الغد، كنت أتخيل نفسي كيف سأصرخ في وجوههم كلهم وخاصة زوجتي أبي ..
كنت أتمنى أن أبحث عن العصا التي كانت تضربني بها كي أوجعها مثلما أوجعتني ..
حتى جدتي كنت أتخيل أنني أقول لها لماذا لم تدافعي عني ..
لماذا تركتني أبكي دون أن تُجففي دموعي دون، أن تهتمي لصراع روحي ..
تخيلت أيضًا أن جميعم واقفين أمامي لمقاضاتهم على الجرائم التي ارتكبوها بحقنا ..
على الآهات التي وضعوها فوق صدورنا، على الليالي التي سرقوها وقبضوا ثمنها من جيوب مدامعنا وعمرنا الضائع ..
تأملت كل ذلك وأنا في طريقي إلى المستشفى، بعدها استيقظت من الأحداث التي رسمتها والتي لا تحدث إلا في الخيال ..
ففي الخيال يستطيع المرء أن يغادر العالم إلى عوالم يخلقها بروحه وحده، يتمكن من ركوب البحار بدلا من الطائرات، يستطيع أن يطير في البحار، أن يحلق على اليابسة ويمشي في السماء أن يبكي من أصابعه وتتساقط الكلمات من عيونه وأكثر من ذلك ..
مضى ذاك اليوم مسرعاً ليتركنا في أحضان اليوم التالي اليوم الذي قررنا فيه العودة إلى المكان الذي تسكن فيه عائلتي.

كان الخوف يحاول إرباك أمي، كنت أرى خطواتها المتباطئة، وهذا شيء طبيعي لأنها في بداية المواجهة ولابد للخوف أن يُدافع عن نفسه ليبقى، لكن النصر لقوة المواجهة التي وافقت عليها أمي ..

خرجنا من المنزل لنصل إلى مكتب استئجار سيارات الأجرة لنأخذ تاكسي يوصلنا إلى دمشق.

جلسنا في الخلف والصمت يعترينا، شعرت أن أمي تود أن تعود ..

نظرت إليها وقلت لها أن كنت لاتودين ذلك أرجوكِ قولي لي، نستطيع العودة .. فلانزال هنا .

قولي لي أرجوكِ إنني لا أحب أن تفعلي ذلك مرغمة ..

قالت: لا .. لا يا "نور" إنني لست خائفة ..

بل إن شريط الذاكرة قد عاد لي، في رأسي تتجول كل الأحداث وكأنها ليلة البارحة قد حدثت.

قلتُ لها : لاتفكري يا أمي.. انسي كل ذلك.

سوف تنسين كل هذه الأمور عندما نواجههم .. ستشعرين بقوتك أمامهم ..ثقي بذلك ولاتفكري ..

عانقتها وجعلت رأسها بين أضلعي ثم مضينا

كان الطريق طويلًا جدا، لم نتحدث إطلاقا وكأننا نحاول أن نشحن روحنا وألسنتنا بالكلام ..

كنا نحاول أن نجمع كل المواقف الصعبة لنصبها فوق رأسهم..

في داخلنا رغبة صامتة بالحديث، ثمة خطاب يمسك نفسه فقد ملَّ من الصبر.

لقد مضى الوقت ونحن في ذات الحالة إلى أن وصلنا، وقف التاكسي أمام الحديقة التي التقيت فيها معي أمي، عادت إلينا الذكرة وكأنها الآن .. كانت أمي ترتجف وفي عيونها دموع لم تستطع حبسهم ..
لم أمنعها من البكاء، تركتها تبكي علَ ذاك الشعور يتلاشى منها ..
بعد ذلك مسَحت أمي دموعها وأمسكتني من يدي ونظرت إليَّ نظرة حسم غير معتادة منها ..
قالت : هيا أُريد أن أراهم جميعا، أُريد أن أتخلص من الصبار العالق في حنجرتي ..
مشينا بخطوات هجومية إلى أن وصلنا إلى الحارة، بدونا عن أهلها غرباء، لم يتمكنوا من معرفتنا ..
توجهنا إلى بيت أبي، دقت أمي الباب بقوة ..
لقد تأخروا في فتح الباب كنا قد ظننا أن لا أحد في المنزل حتى تم فتح الباب ..
وبإدارة مقبض الباب كانت المفاجأة التي لم أكن أتوقع أن أراها
لقد فتح الباب أبي وهو على كرسي متحرك، كان الشحوب والحزن ظاهراًعلى وجهه .. كان الهلاك يرسم خطوطه في تجاعيد وجهه.
إنه كان ينظر إلينا وكأنه عرفنا ولم يعرفنا، تأملنا بشدة، لم يدرِ أيقول من أنتم أم أنني ربما قد عرفت من أنتم..؟
كانت أكثر نظراته على وجه أمي، أمي التي عادت للبكاء ثانية
قلتُ لأبي أتسمح لنا بالدخول

قال: نعم
أدخلت أبي إلى جوف البيت وأغلقت أمي الباب.
بدأنا ننظر إلى ساحة البيت البشعة التي خلدتْ في عقولنا ذكريات مريرة ..
كان البيت يبدو وكأنه منزل مهجور لم يدخله أحد من قبل.
سألته أمي أين هي زوجتك وأولادك ؟ أين أمك ؟
ثم قلتُ له: أين جدتي ؟؟
نظر إليَّ وكادت لواحظه تخرج من كلتا عينيه :
- أنت من؟ أنت "نور"؟ هل أنت "نور"؟؟ بالله قولي أأنت "نور" وهذه أمك ؟؟
بدأ يبكي كالطفل الذي يحتاج إلى حضن أمه، كاد يقوم ليصل إليَّ لكن عجزه عن الوقوف منعه من ذلك.
اقتربتُ منه وجلست أمام قدميه وقلت له نعم أنا "نور" ابنتك وهذه أمي.
إنها أمي يا أبي أمي التي ظلمتموها وأدخلتموها السجن زورا ..
أمي التي حرمتموني منها ..
أمي التي تعذبت في رحابكم دون أي جرم ارتكبته..
إنها ربتني أحسن تربية وأهلكت نفسها لأكون ..
أتعلم يا أبي من أنا الآن بفضلها ؟؟
أنا الدكتورة "نور"

نهضت من مكاني وأخذتُ حقيبتي لكي آخذ منها شهادتي وأُريها لأبي
قلتُ له:
- انظر من أنا .. لقد أصبحت طبيبة في المشفى وقد فتحت عيادة كله بفضل أمي التي لم تفارقني ..
لم تخرج عن طاعة الله لم تقترب من الحرام لم تصاب بالعشق تجاه أحد، حافظت على طهارتها وعلمتني الطهارة علمتني العفة، علمتني بعشقها لي كيف يكون الحب..
لم يتحدث أبي لم يقاطعني كنت أرى الدموع تنهال من عينيه كالمطر حتى أمي كانت تبكي، جلستْ على الأرض لشدة صعوبة الموقف ولم تقوَ على الوقوف ..
زحفتْ إلى أن وصلت إلى الكرسي الذي يجلس عليه أبي
صرختْ أمي بأعلى صوتها لماذا لماذا فعلت هذا؟؟
لماذا وضعت يدك على المصحف في المحكمة وقلت إنني قتلتُ ابنك وأنت لم تكن حاضر بيننا ؟؟ لماذا صدقتها وكذبتني ؟؟
كيف هان عليك أن أقبع في السجن لسنوات؟
كيف استطعتَ أن تُكمل حياتك وهناك مظلوم يدعو عليك في الليل والنهار؟؟
هناك دموع محروقة انصبت في براكين روحي التي هلكت بسببك أنت وزوجتك .. كيف طاوعتك روحك على أن تفعل بي ما فعلت؟
ما الذي فعلتُه حتى تبادرني بهذا الظلم ؟؟

أجهش أبي من شدة البكاء....
كنت أظن أنني سأواجه الرجل القوي السليط، لكن الذي أمامي ضعيف .. ضعيف جداً
رفع رأسه بعد أن وضع يده على وجهه ليمسح الدموع وقال لي
أرجوك سامحيني يا "نور"، كنت أدعو الله على أن يسامحني على الذي دفعتك لفعله .. وأنت يا"لمار"أعلم كم ظلمتك، لكن انظري إلى الحال الذي أنا به .. هي الدعوات التي كنت قد دعوتها قد حلت علي ولكن سامحيني أرجوك .. أتوسل إليكِ أن تصفحي عني..!
لم تجبه أمي اكتفت بالصمت.
اقتربتُ منه وقلت له :لكن ما الذي جرى بك حتى وصلت إلى هنا؟ ثم أين هم أولادك وزوجتك وأين جدتي؟
قال: إنني قبل ثماني سنوات تعرضت إلى حادث أليم وإثر هذا الحادث فقدتُ قدميّ، وبسبب ما حل بي لم تحتملني زوجتي وظلت تتمرد علي وعلى أمي .. حملت أمي مسؤلية البيت والأولاد وكنتُ كلما طلبت منها أن تساعد أمي كانت ترفض وتختلق المشاكل حتى طلبت الانفصال عني ووافقتها .. وماذا كان بوسعي أن أقول لها؟
ولأنني عاجز لا أقوى على الاعتناء بأولادي أخذتهم معها وبعد مدة ليست طويلة طلبت مني أن أمنح أولادي إذن السفر لتزور أختها التي تُقيم خارج البلاد..
ثم أرسلت لي أنها لن تعود أبدا ومنذ ذاك اليوم لم أتمكن من رؤيتهم ولا حتى سماع صوتهم.

وأمي قد ما تت بعد أن أنهكها الحزن على ما فعلته بنا زوجتي
كما أنها تعبت من خدمتي وهي عجوز تحتاج إلى من يخدمها وأنا الآن كما تروني .. لاحول ولاقوة لي، لا أملك حتى الأمل لأعيش به غدي، إنني اتمنى الموت في الدقيقة ألف مرة ..
منذ أن ماتت أمي لم يدخل إلى منزلي أحد قط، والمنزل كما ترونه احتلته العناكب.
لم أعلم ماذا أفعل حينها ولكن كانت الشفقة تجاه ما حلَّ به تغزو قلبي، كنت أشعر أني أُريد معانقته لأُخفف عنه الحزن الذي عبث بروحه ..
حتى أمي لم تُكمل حديثها لم تواجهه بتلك القسوة التي كانت تنتابها ..
كلانا اكتفى بالنظر، كنا مشفقين على ما حل به ونحن الذين دخلنا للمبارزة الكلامية ..
اختفى كل شيء وبقيت الشفقةُ هي التورط الوحيد الذي بقينا به بي
ظل أبي متحفظا على الصمت، لكنني اقتربت منه، جلستُ بالقرب من قدميه ..
نظر إليَّ وابتسم ثم وضع يده على وجهي لأول مرة، كنت أشعر أني أُريد لو أنفجر بالبكاء ..
ثم عانقني.. لا أدري حينها هل أعانقه كما عانقني أم أُفلت نفسي من بين يديه ..

همس أبي في أذني أرجوكِ عانقيني إنني محتاج إليك يا ابنتي ... أرجوك لا تتركيني مرة ثانية .. إنني لا أحتمل أكثر من ذلك.

صدقيني إنني نادم على كل ما اقترفته يداي بحقك وحق أمك، وإنني مستعد لعقاب أكبر من الذي أحياه في هذه الأيام.

في المساحة القلبية الفارغة من حنان أبي اعتراني شعور عارم.. بل اجتياح كالريح جعلني عانقتُ أبي بشدة وبكيت ذاك البكاء الذي بقي مُحتبساً في قلبي ..

طرحتُ كل الغيوم المتلبدة فوق قميصه، كم لي وأنا أبحث عن مثل هذه اللحظة التي أشعر فيها بوجود أبي؟ كم كنت متعطشة له أيضًا.

ولكن احتراما لمشاعر أمي ابتعدت عنه، نهضتُ من بين ذراعيه ووقفتُ جانب أمي، أمي التي لم تمنعني من احتضان أبي رغم كل ما مضى بل بقيت واقفةً مكانها، تركتني أتلذذ بتلك اللحظة.

قلت بعدها لأمي إن أردتِ نستطيع أن نذهب فقد انتهى كل شيء حتى المواجهة كان حضورها بنصف حضور، فهناك قوة خارجية كانت تواجههم قبلنا

قال أبي:

- أرجوك يا"لمار" لاتدعيها تتركني وأنت أيضًا لاتدعيني، إن كنتم تكرهونني أشفقوا على الروح التي تُزهق بداخلي ..

اقتربت منه أمي وقالت له: إن كنتَ تنتظر مني أن أسامحك فلن أستطيع فعل ذلك، ربما أفعل ذلك إن جفَّ نزيفُ جرحِك لي

ولكن في الوقت الحالي لن أسامحك، لن أعطيك فرصة لتتخلص من عقدة الذنب التي تشعر بها.
ولكني لن أسمح لـ"نور" أن تتركك في هذه الحالة الصعبة، كما أنني لن أتدخل بقرارها في مسامحتك أم الرفض، لها الحرية بذلك ..
ولكن لن أجعلها تتركك لأنك أباها ولك الحق عليها في إرضائك.
صمت الكلامُ عن الكلام، لم يكن يدري ماذا يقول لها وكأنه عاجز حتى عنها ..
وجهت أمي السؤال لي بأن أسامحه أو لا ..
هزت أمي رأسها قبل أن أُجيب وكأنها تريد مني أن أسامحه وكأنها تريد أن تخفف من ألمه ..
كنتُ مترددة في قول ذلك لكنني قلتها قلت له أنني سامحتك.
لقد شعر بالسعادة رأيت الفرح يلمع في عينيه، شعرتُ بالفرح لأني وهبته الأمل من جديد..
قلتُ له تستطيع أن تبيع بيتك هذا وتأتي معنا إلى المكان الذي نعيش فيه وتشتري هناك بيت صغير تعيش فيه، وبذلك تكون قريب من مكان عملي وقريب من منزلي أنا وأمي.
أستطيع أيضًا زيارتك كل يوم وإعانتك على ما تريد.
فرح أبي كثيراً لما قلته..
قال لي إنني فخور بك.. إنني ألوم نفسي على ما فعلته بكم. بل إنني نادم أشد الندم على كل شيء حصل ..

ولا أمل لي سوى أن تسامحني أمك....

الساعة الآن الرابعة بعد منتصف الليل، دخلتْ أمي لتراني مرة أُخرى منهكة بين أوراقي ..

قالت : ماذا تفعلين في هذا الوقت يافتاة؟

قلتُ لها :كنت أُنهي الفصل الأخير من روايتي.

قالت: يا لروعة الإحساس الذي تهبيني إياه..

قلتُ : لو أنك لم تمنحيني القوة لما استطعت أن أمسك القلم، وما استطعتُ مواجهة شتاء هذا العالم دون دفئك.

وكل هذه الحروف التي عانقت صدر الورق ما كانت لتكون لولا أنكِ منحتني الحبَّ والقوةَ والثقةَ بأنني أستطيع.....

تمت بحمد الله

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع